دراسات في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

دراسة عقدية لحديث
احفظ الله يحفظك

إعداد

أ. د. محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار طيبة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العلي ، محمد عبدالعزيز

دراسة عقدية لحديث احفظ الله يحفظك. / محمد عبدالعزيز العلي
.- الرياض ،١٤٣٠هـ

١٥٠ ص ؛ ١٧ x ٢٤سم

ردمك: ٤ - ٨٢ - ٨٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الحديث - بحوث ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي: ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٦٣٩٠

رقم الإيداع: ٦٣٩٠ / ١٤٣٠

ردمك: ٤ -٨٢ - ٨٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي

ش. السويدي العام - غرب النفق - ص. ب ٧٦١٢

الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ (٦ خطوط) فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

دراسة عقدية لحديث

احفظ الله يحفظك

أصل هذا الكتاب بحث للمؤلف نشر في

مجلـة جـامعة أم القـرى بمـكة المكـرمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن رسوله الله ﷺ أُعطي «فواتح الكلام وجوامعه وخواتمه»[(١)]، ويتضح ذلك لكل من تتبع سنته، واقتفى أثره، وكان ﷺ حريصًا كل الحرص على نجاة أمته، بتعليمها وتربيتها التربية النبوية العقدية القويمة، يفعل ذلك في كل أوقاته، حتى أثناء تنقله من مكان إلى آخر، كما في أحاديث؛ منها وصيته ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما، عندما كان رديفه على الدابة، وهو موضوع هذا البحث، وهذا الحديث العظيم وإن كان موجهًا من رسول الله ﷺ إلى ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أنه وصية عظيمة القدر للأمة جمعاء، وإرشاد نبوي لكل من أراد النجاة في الدنيا والآخرة.

هذا وقد اعتنى العلماء بهذا الحديث، قديمًا وحديثًا، شرحًا وتفصيلاً، فتتبعت ما كتب فيه، فرأيت أنه بحاجة إلى دراسة عقدية تظهر ما فيه من مسائل عظيمة تتعلق بأشرف العلوم وأجلها قدرًا، وأوجبها مطلبًا، وهو علم التوحيد، لأنه مفتاح الطريق إلى الله سبحانه وتعالى وأساس الشرائع؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد ١/ ٤٠٨ و١/ ٤٣٧. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٤٧٢ ح ١٤٨٣.

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فإن كثيرًا مما كتب في شرح هذا الحديث اعتنى ببسط مسائله الوعظية، وفي هذا خير عظيم، والأمة بحاجة ماسة إلى من يذكِّرها ويعظها بما جاء في كتاب الله تعالى وثبت في سنة رسوله ﷺ، إلا أن التركيز على مسائله العقدية من أهم المهمات.

وهذا لا يعني أن من كتب في شرحه أغفل مسائل العقيدة، لكنه أجمل في ذكرها مقارنة مع ما في الحديث من مسائل كبيرة.

ومن أفضل ما قرأته مما كتب أسلافنا شرح ابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ) في كتابه (شرح الأربعين حديثًا النووية)، وشرح ابن رجب (ت٧٩٥هـ) في كتابيه: (جامع العلوم والحكم)، و(نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس) وغيرهما، وبخاصة ممن كتب في شرح الأربعين النووية.

إلا أنه -كما ذكرت آنفًا- رأيت أن الحديث بحاجة إلى دراسة عقدية تبرز ما فيه من مسائل أجمل في ذكرها، وبخاصة أنه قد تناوله بالشرح ممن هو ليس على عقيدة السلف، فظهرت آثار ذلك في شرحه.

وقد بدأت البحث بمقدمة ذكرت فيها أهمية وسبب الكتابة في هذا الموضوع، ثم تمهيدًا ذكرت فيه الحديث ومكانته وشرحه إجمالاً.

وبعد ذلك قسمت البحث على اثني عشر مبحثًا، كل فقرة في الحديث جعلتها في مبحث مستقل.

ثم ختمت هذه الدراسة بخاتمة، كتبت فيها أهم ما توصلت إليه إجمالاً. أسأل الله إخلاص النية وصلاح العمل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

متن الحديث:

عن أبي العباس عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجَفَّت الصحف**»[1].

وفي رواية: «**احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**».

وفي رواية: «**يا فتى، ألا أهب لك، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن، واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن**

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٩، ح ٢٥١٦، وقال: حديث حسن صحيح، والإمام أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، وأخرجه الطبراني في الكبير، ح ١٢٩٨٨، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣١٤، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير ٢/ ١٣١٨، ح٧٩٥٧.

الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»(١).

مكانة الحديث:

حديث ابن عباس هذا حديث عظيم -وكل أحاديث الرسول ﷺ عظيمة وشريفة- فهو أمر نبوي كريم بحفظ الدين، وبيان لنتيجة ذلك، وهو نصر الله وتأييده وحفظه لمن حفظ دينه، وقد اشتمل هذا الحديث على مسائل عقدية تعد أصولاً عظيمة، من الإيمان بالله، والإخلاص له بالعبادة، والتوكل عليه، والاستعانة به، والقضاء والقدر، والاتّباع لما جاء به رسوله ﷺ.

ومما يدل على مكانته اختيار النووي (ت٦٧٦هـ) له أن يكون ضمن الأربعين حديثًا التي جمعها، وكان رقمه التاسع عشر، وذكر سبب اختياره لها بقوله: «وقد استخرت الله تعالى في جمع أربعين حديثًا...، ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة، رضي الله عن قاصديها، وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثًا مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين، قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام، أو

---

(١) الروايتان في مسند الإمام أحمد ١/ ٢٩٣، و١/ ٣٠٣، ٣٠٧، وعند أبي يعلى ٢/ ٦٦٥، والحاكم في مستدركه ٣/ ٥٤١، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٢١، وصححه الألباني: انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم، تخريج الألباني ١/ ١٣٨، ١٣٩، ورياض الصالحين بتحقيق الألباني ص٦٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٥/ ٤٧٦، ٤٩٦، ح ٢٣٨٢.

ثلثه، أو نحو ذلك...، وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث لما اشتملت عليه من المهمات، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات، وذلك ظاهر لمن تدبره»[١].

كما اختاره النووي أيضًا ليكون ضمن كتابه القيم (رياض الصالحين)، ووضعه في الباب الخامس، باب المراقبة، من الكتاب الأول، فكان رقمه الثاني والستين من جملة الأحاديث التي بلغت ١٨٩٦ حديثًا، وقد قال في مقدمتها: «فرأيت أن أجمع مختصرًا من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون طريقًا لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة، جامعًا للترغيب والترهيب، وسائر أنواع آداب السالكين، من أحاديث الزهد، ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وطهارات القلوب وعلاجها، وصيانة الجوراح، وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين»[٢].

وقد وجد هذان الكتابان قبولاً عظيمًا عند العلماء، وطلبة العلم بعد النووي؛ إذ كثر انتشارهما، واعتني بهما بالشرح والتعليق.

وقد اعتنى العلماء بهذا الحديث خاصة، وشرحوه، وبينوا منزلته، ومن ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) حيث قال: «هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين، وأجلِّها، حتى قال الإمام أبو

---

(١) متن الأربعين النووية ص١١،١٢.

(٢) رياض الصالحين، ص٢٨.

الفرج في كتابه (صيد الخاطر): تدبرت هذا الحديث، فأدهشني، وكدت أطيش، فوا أسفي من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه»[١].

وقال ابن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ) بأن هذا الحديث اشتمل على «هذه الوصايا الخطيرة القدر، الجامعة من الأحكام والحكم والمعارف ما يفوق الحصر»[٢].

وقال ابن عثيمين: «فهذا الحديث الذي أوصى به عبد الله بن عباس ينبغي للإنسان أن يكون على ذكر له دائمًا، وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة، التي أوصى بها النبي ﷺ ابنَ عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما»[٣].

شرح الحديث إجمالاً:

قوله: (**كنت خلف النبي ﷺ**) أي راكبًا معه، ورديفه.

قوله: (**فقال: ياغلام...**) قال له: (**يا غلام**)؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما كان صغيرًا؛ فإن الرسول ﷺ توفي وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة[٤].

قوله: (**إني أعلمك كلمات**) ذكر له ذلك قبل ذكر الكلمات، ليكون ذلك أوقع في نفسه، وجاء بها بصيغة القلّة؛ ليؤذنه أنها قليلة اللفظ، فيسهل حفظها[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٤٦٢.

(٢) فتح المبين لشرح الأربعين، ص١٧٢.

(٣) شرح رياض الصالحين، ص٤٥٦.

(٤) انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠/ ٥٣.

(٥) فتح المبين لشرح الأربعين، ص١٧١.

قوله: **(احفظ الله)** أي احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره ونواهيه.

وحفظ ذلك يكون بالوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده؛ فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه، فمن فعل ذلك، فهو من الحافظين لحدود الله.

وأعظم ما يجب حفظه التوحيد، وسلامة العقيدة، فهي الأصل والأساس لبقية أركان الإيمان والإسلام، التي يجب حفظها، بالإيمان بها قولاً وعملاً واعتقادًا، إخلاصاً لله تعالى، واتباعًا لما جاء به رسول الله ﷺ.

قال ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ) في معنى **(احفظ الله)**: «ومعناه: كن مطيعًا لربك، مؤتمرًا بأوامره، منتهيًا عن نواهيه»[1].

وكذلك من حفظ الله أن يتعلم المسلم من دينه ما يقوّم به عباداته ومعاملاته، ويدعو به إلى الله ﷺ.

وقوله: **(يحفظك)** يعني: أن من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه، حفظه الله؛ في الدنيا من الآفات والمكروهات، وفي الآخرة من أنواع العقوبات، جزاءً وفاقًا.

فكلما حفظ الإنسان دين الله حفظه الله.

وحفظ الله لعبده الحافظ لدينه يكون في أمرين:

الأول: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفّاه على الإيمان.

---

(١) شرح الأربعين حديثًا النووية، ص٥٥.

هذا هو الأمر الأول، وهو أعظمها وأشرفها، وهو أن يحفظ الله عبده من الزيغ والضلال؛ لأن الإنسان كلما اهتدى زاده الله هدى، وكلما ضل ازداد ضلالاً.

الثاني: حفظ الله للعبد في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتّعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله[١].

إذن، من حفظ حدود الله حفظه الله في دينه، وفي بدنه وولده وأهله وماله.

قوله: (**احفظ الله تجده تجاهك**) أي احفظ الله أيضًا، بحفظ حدوده، وحقوقه، وشريعته بالقيام بأمره واجتناب نهيه.

(تجده تجاهك)، وفي رواية (أمامك)، ومعناهما واحد؛ أي: من حفظ حدود الله وجد الله تجاهه وأمامه، في كل أحواله حيث توجه؛ يحوطه وينصره ويوفقه ويسدده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

نعم. من حفظ الله وجد الله أمامه يدله على كل خير، ويذود عنه كل شر، ولا سيما إذا حفظ الله بالاستعانة به؛ فإن الإنسان إذا استعان بالله، وتوكل على الله، كان الله حسبه وكافيه، ومن كان الله حسبه، فإنه لا يحتاج إلى أحد بعد الله، فلن يناله سوء[٢].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ص٢٤٨، ٢٤٩، وشرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥١.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم ص٢٥١، وشرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥١، ٤٥٢.

يقول ابن دقيق العيد في شرح هذه العبارة: «أي اعمل له بالطاعة، ولا يراك في مخالفته؛ فإنك تجده تجاهك في الشدائد»[١].

قوله: (**إذا سألت فاسأل الله**) سؤال الله تعالى: هو دعاؤه والرغبة إليه، فدل هذا التوجيه النبوي الكريم على أن يسأل الله عز وجل، ولا يسأل غيره، فسؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضرر، وجلب المنافع، ودفع المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده.

والله سبحانه يحب أن يُسأل، ويُلَحّ في سؤاله، والمخلوق بخلاف ذلك، يكره أن يُسأل، ويحب أن لا يسأل؛ لعجزه وفقره وحاجته[٢].

قوله: (**وإذا استعنت فاستعن بالله**) دل هذا الحديث على أن يستعان بالله دون غيره، وأن لا يعتمد على مخلوق، فالاستعانة هي طلب العون، ولا يطلب العون من أي إنسان «إلا للضرورة القصوى، ومع دلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالمخلوق، فاجعل ذلك وسيلة وسببًا، لا ركنًا تعتمد عليه»[٣].

يقول ابن رجب: «وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على

---

(١) شرح الأربعين حديثًا النووية ص٥٥.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم ص٢٥٦،٢٥٧.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٢،٤٥٣.

مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان..، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات»(١).

قوله: **(واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتب الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)** المراد أن كل ما يصيب الإنسان في دنياه، مما يضره أو ينفعه، فهو مقدر عليه، فلا يصيب الإنسان إلا ما كتب له من ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعًا.

فالرسول ﷺ يخبر في هذا الحديث أن الأمة لو اجتمعت كلها على نفع أحد لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإذا وقع منهم نفع له فهو من الله تعالى؛ لأنه هو الذي كتبه، وكذلك لو اجتمعوا على أن يضروا أحدًا بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه(٢).

ولهذا جاء في الحديث: **(إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)**(٣).

قوله: **(رفعت الأقلام وجفت الصحف)** هذا إخبار من الرسول ﷺ عن

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ص٢٥٧.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم ص٢٥٨، وشرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٤١، وابن أبي عاصم في السنة، ح ٢٤٦، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح ٢١٥٠.

تقدّم كتابة المقادير، وأن ما كتبه الله فقد انتهى ورفع، والصحف جفّت من المداد، ولم يبق مراجعة، فما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك[١].

قوله: (**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**) يعني: أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه، إذا صبر عليها نصره الله، وجعل صبره خيرًا كثيرًا.

يقول صاحب شرح رياض الصالحين في شرح هذا الحديث: «يعني: اعلم علم اليقين أن النصر مع الصبر، فإذا صبرت، وفعلت ما أمرك الله بن من وسائل النصر؛ فإن الله تعالى ينصرك. والصبر هنا يشمل الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة»[٢].

قوله: (**وأن الفرج مع الكرب**) أي كلّما اشتدت الأمور واكتربت وضافت؛ فإن الفرج من الله قريب. يقول ابن حجر الهيتمي: «(**وأن الفرج**) يحصل سريعًا (**مع الكرب**) فلا دوام للكرب، وحينئذ فيحسن لمن نزل به أن يكون صابرًا، محتسبًا، راجيًا سرعة الفرج مما نزل به، حسن الظن بمولاه في جميع أموره، فالله عز وجل أرحم به من كل راحم، حتى أمه وأبيه، فهو عز وجل أرحم الراحمين»[٣].

وقوله: (**وأن مع العسر يسرًا**) أي: أن كل عسر، فإن بعده يسرًا، بل إن العسر

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٥٥.

(٣) فتح المبين لشرح الأربعين، ص١٧٧.

محفوف بيُسرَيْن: يُسر سابق، ويُسر لاحق؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥،٦]، فالعسر لا يدوم لمن احتسب وصبر، وعلم أن ما أصابه بمقدور الله تعالى، وأنه لا مفرَّ له من ذلك، واستقام كما أمر ربه؛ إخلاصًا وحُسْنَ اتباع[١].

(١) انظر: قواعد وفوائد من الأربعين النووية، ص١٧٨.

المبحث الأول

في قوله ﷺ: «يا غلام، إني أعلمك كلمات»

مما يؤخذ من هذا الجزء في حديث الرسول ﷺ الأمور الآتية:

١- وجوب تعليم الناس العقيدة الصحيحة، وتربيتهم عليها، وعلى العلم النافع، ويكون ذلك بأسلوب مختصر، وكَلِمٍ جامع واضح، فلو تأملت هذا الحديث، لوجدته جامعًا لمسائل عقدية كثيرة بأسلوب موجز.

٢- الحرص على تربية الناشئة على العلم النافع، ويبدأ بتربيتهم على العقيدة الصافية الخالصة؛ فإن الرسول ﷺ وجَّه هذه الكلمات النافعات إلى ابن عباس وهو صغير؛ إذ قال له: (يا غلام، إني أعلمك كلمات)؛ ليتربى الشاب المسلم على معرفة الله وتوحيده، وحفظ حدوده، يلجأ إلى الله في الرخاء والشدة، ويسأله ويستعين به، ويتوكل عليه عز وجل، فيصبح شجاعاً مقدامًا؛ لأنه يعلم أنه لا يملك أحد من البشر له نفعًا ولا ضرًا إلا بإذن الله تعالى، ولأن الله معه ينصره ويؤيده وييسِّر له أموره، ما دام متمسكًا بشرع الله إخلاصًا واتباعًا.

فعلى الجميع الحرص على غرس الإيمان في نفوس الأبناء، وتربيتهم على فهم أصول الإيمان، والعمل بأحكام الإسلام، وتعويدهم على المراقبة والمحاسبة منذ الصغر، قبل أن تصلهم الفلسفات الإلحادية والشبهات البدعية والشهوات المغرضة، وغير ذلك مما تشنه تلك الحملات المسعورة من حرب ضروس ضد شباب الأمة ذكورًا وإناثًا، مرة باسم التثقيف، وباسم التسلية والترفيه مرات أخرى.

٣- استحباب تشويق المتعلم، وتهيئته بلطف العبارة، وتنبيهه إلى أهمية ما يلقى إليه،

وإشعاره بسهولة حفظه ووعيه ليسهل عليه تلقيه واستيعابه، وبالتالي حفظه ووعيه، وبخاصة المسائل العقدية التي تحتاج إلى دقة في حفظها ونقلها، ويؤخذ هذا من فعل الرسول ﷺ عندما قال لابن عباس مقدمًا له هذه المسائل: (ياغلام، إني أعلمك كلمات).

٤- ومما يؤخذ من هذا الحديث حرص الرسول ﷺ على توجيه الأمة، وتنشئة الجيل المسلم على العقيدة الصحيحة والشرع القويم، وقد قال الله تعالى في وصفه ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨]؛ أي: يعز عليه الشيء الذي يُعنت أمته، ويشق عليها، حريص على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم[١]، ولهذا ورد عن أبي ذر ﷺ أنه قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علمًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم»[٢].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٨٥.

(٢) رواه أحمد ٥/ ١٥٣، ١٦٢، والبزّار، ح١٤٧، والطبراني في المعجم الكبير، ح١٦٤٧، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٤١٦، ح١٨٠٣.

المبحث الثاني

في قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك»

ومما يؤخذ من هذا الجزء ما يأتي:

١- إثبات صفة الحفظ لله تعالى، أخذًا من قوله ﷺ: (احفظ الله يحفظك)، فهنا أثبت أن الله عز وجل متصف بأنه يحفظ عباده الذين يحفظون حدوده، فدل على إثبات صفة الحفظ لله تعالى، وأنها تتعلق بإرادته ومشيئته، وهذه الصفة ثابتة لله عز وجل في القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤] ، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٧].

وقد ذكر العلماء أن من أسماء الله تعالى (الحافظ) و(الحفيظ)؛ أخذًا من الآيتين السابقتين، ومن المعلوم أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ وذلك لأن كل اسم متضمن لصفة، وأسماء الله تعالى إن دلت على وصف، فقد تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها[١].

مثال ذلك: (الحافظ) يتضمن إثبات (الحافظ) اسمًا لله تعالى، وإثبات الحفظ صفة له، وإثبات حكم ذلك ومقتضاه، وهو أنه سبحانه يحفظ عباده، الذين يحفظونه.

---

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ص ١٠، ١٥، ٢١.

ومن الأدلة أيضًا على تسمية الله بالحفيظ: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الشورى:٦]، وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢١].

يقول صالح البليهي (ت ١٤١٠هـ): «الحفيظ من أسماء الله الحسنى، واشتقاقه من الحفظ، والحفظ لغة: هو الحراسة والصيانة والحياطة، والله جل وعلا سمى نفسه حفيظًا... فالله تقدّس اسمه هو الحافظ والحفيظ، هو تعالى على كل شيء حفيظ، أي شاهد وحافظ، يحفظ على عباده أقوالهم وأفعالهم، فيجازي كلاً بعمله، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشر...، والله تعالى من فضله ولطفه ورحمته وإحسانه يحفظ عباده المؤمنين، وهو خير الحافظين، يحفظهم من كل شر، ومن كل محنة وبلاء، يحفظهم تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ يحفظهم بشرط أن يحافظوا على ما أوجب الله عليهم في شريعة الإسلام، وبشرط أن يحفظوا جوارحهم عن كل ما حرم الله...، ودعاء الله بأسمائه مشروع، وكيفيته: يا غفور اغفر لي، يا رحمن ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا معافي عافني، ونحو ذلك، فالله تعالى هو الحافظ والحفيظ...، اللهم يا حافظ ويا حفيظ احفظنا وأنت خير الحافظين».[١]

٢- وجوب حفظ العقيدة، والحرص على سلامتها مما قد يشوبها، وأن ذلك أعظم أسباب حفظ الله للعبد، كما يجب حفظ الشريعة، وذلك بالعمل بها، والدعوة إليها، والدفاع عنها.

---

(١) انظر: عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين ٢/ ٣٧-٤١.

فإذا كان قوله ﷺ: (احفظ الله) يعني حفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره ونواهيه، فإن أعظم حقوقه توحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، واتباع كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، المصدَرَيْن لتلقي العقيدة، والحذر من الانزلاق مع الهوى، أو تقديم العقل على النص الشرعي مما أوقع كثيرًا من الفرق والنحل في الشرك والبدع والمخالفات.

وحفظ العقيدة يكون بتعلمها، والإيمان بها، والعمل بمقتضاها، وتعليمها، والدعوة إليها.

فقوله: (احفظ الله) أمر بحفظ توحيده، وأوامره ونواهيه، وحقوقه وحدوده، كما أنه أمر بحفظ الجوارح كالسمع والبصر واللسان والبطن والفرج.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١-٣٣]. يقال للمتقين على وجه التهنئة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي هذه الجنة وما فيها، هي التي وعد الله لكل أواب؛ أي: رجّاع إلى الله، في جميع الأوقات، بتوحيده وذكره، وحبه، والاستعانة به، (حفيظ) أي: محافظ على ما أمر الله به، من توحيده وشرعه، على وجه الإخلاص، والإكمال له على أتم الوجوه، حفيظ لحدوده[(١)].

وخُصت بعض الأعمال بالتنصيص على حفظها اعتناءً بشأنها، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقوله تعالى:

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٣٦٤.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠]، وقوله: ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥]، وقوله: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله ﷺ : **«من حفظ ما بين لحييه ورجليه دخل الجنة»**(١)، وفي رواية: **«من وقاه الله شر ما بين لحييه، وشر ما بين رجليه دخل الجنة»**(٢)، وقوله ﷺ: **«ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»**(٣).

إذن من فعل الواجبات وترك المحرمات، فقد حفظ حدود الله تعالى، ومن ثَمَّ فقد حفظ الله، وأعظمُ ما أوجبه الله على عباده: توحيده، وعبادته سبحانه إخلاصاً له، ومتابعةً لما جاء به رسول الله ﷺ، فهي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فمن آمن بذلك وعمل به، فهو من الحافظين لحدود الله تعالى، الذين أثنى الله

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٧، وصححه، ورواه الترمذي وحسّنه، ح ٢٤٠٩، وصححه ابن حبان، ح ٥٧٠٣، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٢٣.

(٢) رواه الترمذي ٢/ ٦٦، وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٢٢، ح ٥١٠.

(٣) رواه أحمد في المسند ٥/ ٢٨٢، والدرامي ١/ ١٦٨، وصححه ابن حبان، ح ١٠٣٧، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٨٦، ح ١٩٢.

عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢]، وقوله سبحانه: ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢].

ومن الأدلة على حفظ الجوارح: ما جاء في حديث ابن مسعود المرفوع: (الاستحياء من الله حق الحياء: أن يحفظ الرأس وما وعى، ويحفظ البطن وما حوى)[(١)].

وحفظ الرأس وما وعى: يدخل فيه حفظ اللسان من الكذب والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، والقول الحرام، وحفظ السمع عن الأصوات المحرمة، وحفظ البصر عن النظر إلى ما حرم الله تعالى النظر إليه، ونحو ذلك.

وحفظ البطن وما حوى: يدخل فيه حفظ القلب عن الاعتقاد الباطل، والإصرار على المحرم، وحفظ البطن من إدخال ما حرم الله من المأكولات والمشروبات الممنوعة شرعًا[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبّت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يُعدّ للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله تعالى،

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/ ٣٨٧، والترمذي، ح ٢٤٥٨ في كتاب صفة القيامة باب (٢٤)، والحاكم ٤/ ٣٢٣، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي، ح ٢٠٠٠.

(٢) انظر: نور الاقتباس، ص١٠.

وإخلاص الدين له، وكفِّها عما يكرهه الله جل وعلا[١].

«وكما هو معروف الجزاء من جنس العمل؛ فمن حفظ الله حفظه الله، وحفظ الله لا يحصل إلا بفعل الواجبات وترك المحرمات، فمن فعل جميع ما أوجب الله عليه، وترك جميع ما حرم الله عليه حفظه الله بما يحفظ به عباده الصالحين، ومن المعروف أن هذه الحياة في غالب الأزمان تموج بالشرور والفتن، والحروب الطاحنة، ولكن من حفظ الله حفظه الله»[٢].

ومما يلزم التنبيه عليه: أن «الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أحد حتى يحفظه، ولكن المراد حفظ دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد:٧]، وليس المعنى تنصرون ذات الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى غني عن كل أحد، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ [محمد :٤]، ولا يعجزونه ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:٤٤]»[٣].

وهذا الفهم الخاطئ قد يفهمه الجهلة، أو يثيره الأعداء، فإن اليهود عندما سمعوا قول الله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالوا: يا محمد، افتقر ربك، فسأل عباده القرض، ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٤٠٩.

(٢) عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين ٢/ ٣٨.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٠،٤٥١.

استقرض منا – كما نُقل ذلك عنهم[١]- فأنزل الله قوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤١٠، وأسباب النزول ص٩٩،٩٨.

المبحث الثالث

في تفصيل قوله ﷺ: « يحفظك »

إذا حفظ العبد توحيده، وراعى حقوق ربه، فعندئذ يحفظه الله؛ في دينه، وفي بدنه، وماله وأهله.

وأعظم هذه الأمور حفظ الله تعالى دين العبد، بأن يسلّمه من الزيغ والضلال، والانحراف؛ لأن الإنسان كلما حرص على حفظ توحيده، وسلامة عقيدته من البدع والخرافات والضلالات، حفظ الله عليه عقيدته وتوحيده، وكلما التزم الهداية زاده الله هدى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وكلما ضل الإنسان، والعياذ بالله، فإنه يزداد ضلالاً، ولهذا قال تعالى عن المنافقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، أي: ختم على قلوبهم، وسد أبواب الخير التي تصل إليه بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل[١].

ولهذا جاء في الحديث: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء؛ فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلُوَ قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾**»[٢].

يحفظ الله عز وجل عبده الحافظ لدينه في حياته، وعند موته، فيتوفاه على الإيمان؛ إذ الجزاء من جنس العمل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٧٣١.

(٢) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ح ٣٣٣٤ في كتاب التفسير، وابن ماجه، كتاب الزهد ح٤٢٤٤، وأحمد في مسنده، ٢/ ٢٩٧.

بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم عن فراشه ثم رجع إليه، فلينفضه بصَنِفة إزاره ثلاث مرات؛ فإنه لا يدري ما خَلَفَه عليه بعده، وإذا اضطجع فليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»(١).

فمن حفظ الله في حياته، بإخلاص العبادة له سبحانه، وحسن الاتباع لرسوله ﷺ حفظه الله بالإسلام، ونصره وأيده، وقد علّم رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقول: «**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا، ولا تشمت بي عدوًا ولا حاسدًا، اللهم إني أسألك من كلِّ خيرٍ خزائنُه بيدك، وأعوذ بك من كلِّ شر خزائنُه بيدك**»(٢).

وقال ﷺ: «**من أراد أن يسافر، فليقل لمن يخلِّف: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه**»(٣).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول للرجل إذا أراد سفرًا: ادنُ منِّي أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودّعنا، فيقول: (**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**)(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى ١١/ ١٠٧، ح٧٣٩٣، وورواه مسلم، كتاب الذكر، باب ما يقول عند النوم، ح ٢٧١٤، والترمذي في الدعوات، ح٣٤٠١، واللفظ له.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٢٥، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ١٥٤٠.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٤٠٣، وابن ماجه، ح ٢٨٢٥ في كتاب الجهاد، باب تشييع الغزاة ووداعهم، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ١٦.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٤٥، ح ٣٤٣٩، وأحمد ٢/ ٧ و٢٥و٢٨، وصححه ابن=

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الله إذا اسْتُودع شيئًا حفظه»**(١).

فالله عز وجل يحفظ العبد الحافظ لدينه، المخلص في عبادته، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه من مفسدات الشبهات والشهوات، من البدع والخرافات، وأنواع المغريات، فيحفظه الله منها بأنواع الحفظ، قد يخفى بعضها عليه؛ إذ يكون في ظاهرها بلاء، وفي حقيقتها صرف السوء عنه، كما قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

يقول السعدي (ت ١٣٧٦هـ) في حديثه عن قصة يوسف عليه السلام: «فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها همًا تركه لله، وقدَّم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى برهان ربه – وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله- ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يسخط الله، ويبعد عنه...، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة سيده، الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم، الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما مَنَّ الله عليه مِنْ برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي

- حبان ح ٢٣٧٦، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح١٤.

(١) رواه أحمد في المسند ٢/ ٨٧، وابن حبان، ح٣٣٧٦، وصححه الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢١.

منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله: أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عبادتهم، الذين أخلصهم الله، واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم المكاره، ما كانوا به من خيار خلقه»[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان»[٢].

فمن حافظ على سلامة توحيده من الشبهات والانحرافات، وقام بحقوق الله عليه؛ فإن الله يحفظه بحفظ جميع مصالحه في الدنيا والآخرة، فمن أراد أن يتولى الله حفظه في أموره كلها، فليراع حقوق الله عليه، وأعظمُها حق توحيده، وإفراده بالعبادة، والعمل بشريعته، اتباعًا لرسوله ﷺ، وقد أخبر الله تعالى بأنه ولي المؤمنين وكافيهم وحسبهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٣٥١،٣٥٢.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٨٥، وقال: رواه الحاكم في مستدركه موقوفًا، وانظر المستدرك ٢/ ٣٢٨.

فالحافظ لدينه يحفظه الله في دينه ودنياه ، ويحييه حياة طيبة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، روى الطبري (ت٣١٠هـ) عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قوله بأن المعقبات «هم ملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلَّوا عنه»[(١)].

وروى الطبري أيضًا، عن مجاهد (ت ١٠٤هـ) قوله: «ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءك، إلا شيئًا يأذن الله فيه فيصيبه»[(٢)].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لم يكن النبي ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «**اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي**»[(٣)].

ويقول الله عز وجل: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذه الآية «وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة

---

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن ١٣/ ٧٧.

(٢) انظر المصدر السابق، ١٣/ ٧٨.

(٣) رواه أبو داود في الأدب، ح ٥٠٧٤، وابن ماجه في الدعاء، ح ٣٨٧١، والحاكم في مستدركه ١/ ٥١٧، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٣٢.

رسوله ﷺ، من ذكر أو أنثى، من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، أن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه الله بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»(١)، وذلك بأن يوفق الله عبده إلى ما يرضيه، ويرزقه العافية والرزق الحلال(٢).

فلو أن الأمة -رعاةً ورعيةً- حفظوا شرع الله تعالى، واحتكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحكَّموهما في جميع مجالات الحياة، لسلمت الأمة من كثير من الأخطار والفتن والابتلاءات كالجوع والخوف والغزو ونحو ذلك؛ إذ إن ما أصابها من تشتت وفرقة هو بسبب تهاونها في حفظ حدود الله تعالى والقيام بشرعه.

وإن انتصار الأمة مرهون بنصرها دين الله تعالى، بالعمل به والدعوة إليه، والدفاع عنه، يقول تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج: ٤٠]، ففي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى «أنه أقسم لينصرن من ينصره، ومعلوم أن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ونصرة رسله واتباعهم، ونصرة دينه، وجهاد أعدائه، وقهرهم، حتى تكون كلمته هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى، ثم إن الله جل وعلا بيّن صفات الذين وعدهم بنصره؛ ليميزهم عن غيرهم، فقال مبينًا من أقسم أنه ينصره؛ لأنه ينصر الله جلا وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤١] الآية، وفي قوله:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٦.

(٢) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٣٥٢-٣٥٥.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر إلا مع إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالذين يمكن الله لهم في الأرض، ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه، الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه، فلو طلبوا النصر من الله بناءً على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أُجِرَ عليه، ثم يطلب الأجرة، ومَنْ هذا شأنه، فلا عقل له»(١).

وخلاف ذلك، من كفر بأنعم الله تعالى، وضيّع حدوده، فقد عرّض نفسه للهلاك، يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣]. قال الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) بعد تفسيره هذه الآية: «وعلى كل حال، فيجب على كل عاقل أن يعتبر بهذا المثل، وألا يقابل نعم الله بالكفر والطغيان؛ لئلا يحل به ما حل بهذه القرية المذكورة، ولكن الأمثال لا يعقلها عن الله إلا من أعطاه الله علمًا؛ لقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]»(٢).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/ ٧٠٣، ٧٠٤.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٣٧٧.

«ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره، وضعف قوته، ومتَّعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله»(١).

ذكر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) أن أبا الطيب طاهر بن عبد الله الطبري الشافعي (ت ٤٥٠هـ)، قد جاوز المائة سنة وهو ممتَّع بقوته وعقله، فوثب يومًا وثبة شديدة، فعوتب في ذلك، فقال: «هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر»(٢).

وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخًا يسأل الناس، فقال بأن هذا الشيخ لم يحفظ الله في صغره، فلم يحفظه الله في كبره(٣).

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته، في ذريته، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا، والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم»(٤).

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ص٤٦٦.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١٢/ ٨٥، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٦٨-٦٧١، وجامع العلوم والحكم ص٤٦٦.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ص٤٦٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٩٧.

وروى ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحًا»[(١)].

وقال السعدي في تفسير الآية السابقة: «أي حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونهما صغيرين عُدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا بصلاح والدهما»[(٢)].

وذكر ابن رجب أن سعيد بن المسيب قال لابنه: «لأزيدنّ في صلاتي من أجلك؛ رجاء أن أُحفظ فيك»[(٣)] ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

ونقل عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه»[(٤)].

وقال أبو نعيم (ت٤٣٠هـ) بأن ابن المنكدر (ت١٣٠هـ) قال: «إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر»[(٥)].

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«كانت امرأة في بيت، فخرجت في سرية**

(١) انظر: المصدر السابق، وذكر هذا الأثر ابن المبارك في الزهد (٣٣٢)، والطبري في جامع البيان في تفسير القرآن ١٦/ ٧، والحاكم ٢/ ٣٦٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٤٣٢.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ص٤٦٧.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥) الحلية ٣/ ١٤٨، ورواه ابن المبارك في الزهد (٣٣٠)، والحميدي (٣٧٣)، وانظر جامع العلوم والحكم.

من المسلمين، وتركت ثنتي عشرة عنزًا، وصيصيتها[(١)] كانت تنسج بها، قال: ففقدت عنزًا لها وصيصيتها، فقالت: يا رب، إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزًا من غنمي وصيصيتي، وإني أنشدك عنزي وصيصتي». قال: وجعل رسول الله ﷺ يذكر شدّة مناشدتها ربها تبارك وتعالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «**فأصبحت عنزُها ومثلها، وصيصيتها ومثلها**»[(٢)].

ومن حفظ الله تعالى لعبده الحافظ لحدود الله أن يجعل الحيوانات المؤذية، حافظة له من الأذى، كما حدث لسفينة مولى النبي ﷺ، حيث كسر به المركب، وخرج إلى جزيرة، فرأى أسدًا، فجعل يمشي معه حتى دله على الطريق، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه، ثم رجع عنه[(٣)].

ومن ضيع حدود الله واتبع الشبهات، أو غرق في الشهوات، ولم يحفظ الله، لم يحفظه الله، وكان عرضة لعقاب الله وسخطه، ودخل عليه الضرر والأذى، وربما أصابه ذلك ممن كان يرجو نفعه من أهله وماله، كما نقل عن الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ) أنه قال: «إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق خادمي ودابتي»[(٤)].

---

(١) الصيصية: هي الصنّارة التي يغزل بها وينسج، انظر: لسان العرب ٢/ ٥٠١، والنهاية في غريب الحديث والأثر ص٥٣٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٦٧، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٧ وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٦٤٣٢)، وصححه الحاكم ٣/ ٦٠٦، وانظر الحلية ١/ ٣٦٩.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ١٠٩، وجامع العلوم والحكم ص٤٦٨.

المبحث الرابع

في قوله ﷺ: « احفظ الله تجده تجاهك»

وفي الرواية الأخرى: «احفظ الله تجده أمامك»

من حفظ الله بحفظ توحيده وشريعته، وقام بأوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه، وجد الله تجاهه وأمامه، ومعناهما واحد؛ أي: وجد الله أمامه يدله على كل خير، ويذود عنه كل شر، وبخاصة إذا حفظ الله بالاستعانة به والتوكل عليه، فإن الإنسان إذا استعان بالله، وتوكل على الله، كان الله حسبه وكافيه، ومن كان الله حسبه؛ فإنه لا يحتاج إلى أحد بعد الله، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]، «أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله، فهو كافيكم كلكم، وليس المراد أن الله والمؤمنين حسبك كما يظنه بعض المغالطين؛ إذ هو وحده كافٍ نبيه، وهو حسبه، ليس معه من يكون هو وإياه حسبًا للرسول»(١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٦٢]؛ فإذا كان الله حسب الإنسان، أي كافيه؛ فلن ينالوه بسوء، ولا يزال عليه من الله حافظ، ولهذا قال ﷺ: «**احفظ الله تجده تجاهك**».

قال ابن حجر الهيتمي: «أي تجده معك بالحفظ، والإحاطة والتأييد والإعانة، حيثما كنت، فتأنس به، وتستغني به عن خلقه...، على حد قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، المعنى: تجده حيثما توجهت وتيممت وقصدت من أمر الدين والدنيا»(٢).

---

(١) انظر: الرسالة التدمرية ص١٥٣.

(٢) انظر: فتح المبين لشرح الأربعين ص١٧٢.

ومعية الله لخلقه نوعان:

الأولى: المعية الخاصة بالمؤمنين، الحافظين حدود الله، وهي تقتضي النصر والتأييد، والحفظ والإعانة، وتوجب لمن آمن بها كمال الثبات والقوة. ودليل هذه المعية الخاصة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦]، وقوله تعالى عن موسى أنه قال: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقول النبي ﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**» ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠] (١)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩].

فمن حفظ الله حفظه الله وأيده ونصره.

الثانية: المعية العامة لجميع الخلق، وهي تقتضي الإحاطة بجميع الخلق من مؤمن وكافر، وبَرٍّ وفاجر، في العلم، والقدرة، والتدبير، والسلطان، وغير ذلك من معاني الربوبية.

وهي توجب لمن آمن بها كمال المراقبة لله عز وجل.

ومن أمثلة هذا النوع: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ ﴾ [الحديد:٤]، وقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة :٧]، وقوله: ﴿ وَلَا

---

(١) الحديث رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ح ٣٦٥٣، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه، ح ٢٣٨١.

يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

والكتاب والسنة يدلان على قرب الله تعالى من عبده الحافظ لدينه، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقول الله تعالى في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[(١)].

والمراد أن الله سبحانه وتعالى يسدد هذا الولي في سمعه وبصره وعمله، بحيث يكون إدراكه بسمعه وبصره، وعمله بيده، كله لله تعالى، إخلاصًا، وبالله تعالى استعانة، وفي الله تعالى شرعًا واتباعًا، فيتم له بذلك كمال الإخلاص والاستعانة والمتابعة، وهذا غاية التوفيق[(٢)].

وقوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: **«من تقرّب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»**[(٣)].

فالله سبحانه وتعالى يقرب من عبده كيف يشاء مع علوه جل وعلا، ويأتي عبده

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ح ٦٥٠٢.

(٢) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ص٦٩.

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، ح ٢٦٨٧، وروى البخاري نحوه في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ ح٧٤٠٥.

كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر»(١).

وروى ابن رجب عن قتادة (ت ١١٨هـ) أنه قال: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل».

وذكر أن بعض السلف كتب إلى أخ له يقول: «أما بعد، فإن كان الله معك فممن تخاف؟! وإن كان عليكم فمن ترجو؟! والسلام»(٢).

ولا شك أن الذي يحفظ عقيدته من الانحراف، وعمله من الشرك، ويتقي الله يكون الله معه، بنصره وتأييده، يهديه ويحفظه، ويؤمنه، ومن اتبع الشبهات، أو ضيع حدود الله، فقد عرّض نفسه للهلاك.

فمن أراد أن يتولَّى الله حِفْظَه ورعايته في أموره كلها، فليراع حقوق الله عليه، ومن أراد ألا يصيبه شيء مما يكره، فلا يأت شيئًا مما يكرهه الله منه، وعلى قدر اهتمام العبد بحقوق الله ومراعاة حدوده وحفظه لها، يكون حفظ الله له ونصره وتأييده، ومن كان غاية همه توحيد الله ومعرفته، وطلب قربه ورضاه؛ فإن الله

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٥/ ٤٦٦.

(٢) انظر: نور الاقتباس ص٢٢.

يكون له حسب ذلك، بل هو سبحانه أكرم الأكرمين، فهو يجازي بالحسنة عشرًا ويزيد، ومن تقرّب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة.

المبحث الخامس

في قوله ﷺ: « إذا سألت فاسأل الله »

قوله: (**إذا سألت فاسأل الله**) أي: لا تعتمد على أحد من المخلوقين، وإذا احتجت فاسأل الله وحده، يأتيك رزقك من حيث لا تحتسب، أما إذا سأل الإنسان المحتاج الناس، فربما أعطوه أو منعوه، ولهذا جاء في الحديث: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب، ثم يبيعه، لكان خيرًا له من أن يسأل الناس؛ أعطوْه أو منعوه**»(١).

فعلى المسلم أن يتجه بسؤاله لله وحده، ويدعوه بإلحاح؛ مثل أن يقول: «اللهم ارزقني»، و«اللهم أغنني بفضلك عمَّن سواك»، وما أشبه ذلك من الكلمات(٢). وفي قوله: «إذا سألت فاسأل الله» أمر بإفراد الله عز وجل بالسؤال، ونهي عن سؤال غيره.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء:٣٢]، وقال جل وعلا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

«وهذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعّد من استكبر عنها»(٣).

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، ح ١٤٧١.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٦٨٧.

فيجب على المسلم أن يتوجه بسؤاله لله وحده، لا سيما في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، فمن طلبها من غير الله، فقد أشرك مع الله غيره، كمن يدعو أصحاب القبور ونحوهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

أما سؤال الناس في الأمور التي يقدرون عليها، فقد وردت نصوص كثيرة تذم طلبها منهم، وتثني على المتعففين الذين لا يسألون الناس، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا؛ منهم: أبو بكر الصديق، وأبو ذر، وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته، فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه[(١)].

وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية في تفصيل الحكم في هذه المسألة، فقال: «وتفصيل القول: أن مطلوب العبد إن كان في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، مثل أن يطلب شفاء مريضه من الآدميين والبهائم، أو وفاء دَيْنه من غير جهة معينة، أو عافيته، أو عافية أهله، وما به من بلاء الدنيا والآخرة، وانتصاره على عدوه، وهداية قلبه، أو غفران ذنبه، أو دخول الجنة، أو نجاته من النار، أو أن

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، ح ١٠٤٣.

يتعلم القرآن والعلم، أو أن يصلح قلبه، ويحسن خلقه، ويزكي نفسه، وأمثال ذلك؛ فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تطلب إلا من الله تعالى، ولا يجوز أن يقول لا لملك ولا نبي، ولا شيخ؛ سواء كان حيًا أو ميتًا: اغفر ذنبي، ولا (انصرني على عدوي)، ولا (اشف مريضي)، ولا (عافني وعافِ أهلي ودوابي)، وما أشبه ذلك، ومن سأل ذلك مخلوقًا -كائنًا من كان- فهو مشرك بربه، من جنس المشركين، الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل، التي يصورونها على صورهم، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وأما ما يقدر عليه العبد، ويجوز أن يطلب منه في بعض الأحوال دون بعض؛ فإن مسألة المخلوق قد تكون جائزة، وقد تكون منهيًا عنها، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧،٨]، وأوصى النبي ﷺ ابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**» وأوصى النبي ﷺ طائفة من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا، فكان أحدهم يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد: ناولني إياه... ومن الأمر المشروع في الدعاء: دعاء غائب لغائب؛ ولهذا أمرنا النبي ﷺ بالصلاة عليه، وطلب الوسيلة له، وأخبرنا بما لنا بذلك من

الأجر إذا دعونا بذلك[١]. ويشرع للمسلم أن يطلب الدعاء ممن هو فوقه، وممن هو دونه.. لكن النبي ﷺ لما أمرنا بالصلاة عليه، وطلب الوسيلة له، ذكر أن من صلى عليه مرة صلى الله بها عليه عشرًا، وأن من سأل الله له الوسيلة حَلَّت له شفاعته يوم القيامة، فكان طلبه منا لمنفعتنا في ذلك، وفرق بين من طلب من غيره شيئًا لمنفعة المطلوب منه، ومن يسأل غيره لحاجته إليه فقط»[٢].

وكيف يطلب من غير الله كشف الضر أو جلب النفع، وذلك كله بيده عز وجل، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

والله عز وجل يحب أن يُسأل ويُرغب إليه في الحوائج، ويُلَحّ في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، قال ﷺ: **«من لم يدْعُ الله سبحانه يغضب عليه»**[٣]، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم، كتاب الصلاة، ح٣٨٤، وفيه: **(ثم صلُّوا عليَّ؛ فإنه من صلَّى عليَّ صلاة صلَّى الله عليها بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة... فمن سأل لي الوسيلة حَلَّت له الشفاعة)**.

(٢) انظر: اللمعة في الأجوبة السبعة ص٢٢-٢٦، ومجموع الفتاوى ٢٧/ ٦٧-٦٩.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم (٣)، ح ٣٣٧٠، وأحمد ٢/ ٤٤٢، وابن ماجه، ح ٣٨٢٧، وقال الألباني عنه بأنه حديث حسن، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ٢٦٥٤، وصحيح ابن ماجه ٣٠٨٥.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ويقول الرسول ﷺ: **«ينزل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»**(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **«يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»**(٢).

يقول ابن القيم (ت ٧٥١هـ) في شرح هذه المسألة: «وهذا كله تحقيق للتوحيد والقدر، وأنه لا ربَّ غيره، ولا خالقَ سواه، ولا يملك المخلوق لنفسه، ولا لغيره ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل الأمر كله لله، ليس لأحد سواه منه شيء، كما قال تعالى لأكرم خلقه عليه، وأحسنهم إليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وقـــال جوابًا لمن قال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ، فالملك كله له، والأمر كله له، والحمد كله له، والشفاعة كلها له، والخير كله في يديه، وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ

(١) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، ح ١١٤٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح ٢٥٧٧.

ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] فاستعذ به منه، وفِرّ منه إليه، واجعل لجاك منه إليه، فالأمر كله له، لا يملك أحد معه منه شيئًا، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا يضرّ سُمٌّ ولا سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بإذنه ومشيئته، يصيب بذلك من يشاء، ويصرفه عمن يشاء»(١).

ولذلك قال تعالى؛ مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١].

فنوح عليه السلام قال لقومه: إن كان عَظُم عليكم مقامي فيكم بين أظهركم، وتذكيري إياكم بحُجَج الله وبراهينه، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ؛ فإني لا أبالي، ولا أكف عنكم، سواء عَظُم عليكم، أو لا، فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم، الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ، أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسًا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ولا تتأخروا ساعة واحدة، مهما قدَرْتم فافعلوا؛ فإني لا أباليكم، ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء(٢).

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٢٧٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٠٤.

وقال تعالى، مخبرًا عن هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

يبين هود عليه السلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى؛ ولهذا أشهد اللهَ وأشهدهم أنه عليه السلام بريء من جميع الأنداد والأصنام، ثم قال لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم، أنتم وآلهتكم، إن كانت حقًا، بكل طريق تتمكنون بها مني ولا تمهلونِ طرفة عين، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ واعتمدت عليه في أمري كله، فهو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم، وهو الذي ربانا، فلا تتحرك دابة ولا تسكن إلا بإذنه، فلوا اجتمعوا جميعًا على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي، لم تقدروا على ذلك؛ فإن سلطكم فلحكمة أرادها، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على عدل وقسط وحكمة، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يُحمد، ويثنى عليه بها(١).

أما سؤال الناس فيما يقدرون عليه، فترْكه أوْلى، وذلك أن في طلب الناس وسؤالهم ذِلةً وخضوعًا، والمسلم مطالب بإظهار كمال الذُّل والخضوع لله وحده لا شريك له.

يقول ابن رجب: «واعلم أن سؤال الله تعالى، دون خلقه هو المتعيّن؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة»(٢).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣١، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٣٤٠.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم ص٤٨١.

وقال في كتاب آخر: «واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعًا، وذلك من وجوه متعددة، منها: أن السؤال فيه بذل ماء الوجه وذِلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده، فلا يصلح الذل إلا له بالعبادة والمسألة، وذلك من علامات المحبة الصادقة.

ومنها: أن في سؤال الله عبوديةً عظيمة؛ لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم؛ لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه، ودفع الضر عنها، فكيف يقدر على ذلك لغيره؟ وسؤاله إقامة له مقام من يقدر، وليس هو بقادر.

ومنها: أن الله يحب أن يُسأل، ويغضب على من لا يسأله، فإنه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه، ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب الملحِّين في الدعاء، والمخلوق غالبًا يكره أن يُسأل لفقره وعجزه.

ومنها: أنه الله تعالى يستدعي من عباده سؤالَه، وينادي كل ليلة: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داعٍ فأستجيب له... فأي وقت دعاه العبد وجده سميعًا قريبًا مجيبًا، ليس بينه وبينه حجاب ولا أبواب، وأما المخلوق؛ فإنه يمتنع بالحجاب والأبواب، ويعسُر الوصول إليه في أغلب الأوقات»(١).

ولهذا كان عقوبة من سأل الناس تكثُّرًا أن يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة لحم، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة**

(١) انظر: نور الاقتباس ص٣١، وانظر الوافي في شرح الأربعين النووية ص١٢٧.

ليس في وجهه مُزعة لحم»[١].

وقال ﷺ: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حَمالةً، فحلت له المسألة، حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، أو قال سدادًا من عيش، ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقةٌ، فحلَّت له المسألة، حتى يصيب قِوامًا من عيش، أو قال سدادًا من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا»[٢].

في هذا الحديث يبين الرسول ﷺ أن مَنْ يحِلُّ له المسألة من الناس ثلاثة: الأول صاحب الحَمالة، وهو أن يكون بين القوم تشاحُنٌ، في دم أو مال، فيسعى رجل في إصلاح ذات بينهم، ويضمن مالاً يُبذل في تسكين ذلك التشاحن، فإنه يحل له السؤال، ويعطي من الصدقة قدر ما تبرأ ذمته عن الضمان، وإن كان غنيًا، والثاني: أن يكون معروفًا بالمال، فيهلك ماله بسببٍ ظاهرٍ كالجائحة، فهذا يحل له الصدقة، حتى يصيب ما يسد خَلَّته به، ويُعطى من غير بينة تشهد على هلاك ماله؛ لأن سبب ذهاب ماله أمر ظاهر، والثالث: صاحب مال هلك ماله بسبب خفِيٍّ من لص، أو خيانة، أو نحو ذلك، فهذا تحل له المسألة، ويُعطى من الصدقة بعد أن يذكر جماعة من أهل الاختصاص به، والمعرفة بشأنه أنه قد هلك ماله»[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا، ح ١٤٧٤، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، ح ١٠٤٠.

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، ح ١٠٤٤.

(٣) انظر: شرح السنة ٦/ ١٢٥، ١٢٦.

وقد ذكر النووي (ت ٦٧٦هـ) اتفاق العلماء على النهي عن السؤال إذا لم تكن ضرورة، ثم قال: «واختلف أصحابنا في مسألة القادر على الكسب على وجهين: أصحهما أنها حرام؛ لظاهر الأحاديث، والثاني: حلال مع الكراهية بثلاثة شروط: أن لا يُذِلَّ نفسه، ولا يلحَّ في السؤال، ولا يؤذي المسؤول؛ فإن فقد أحد هذه الشروط فهي حرام بالاتفاق»[١].

وإذا علم المسلم أن الغني القادر الذي بيده الخير كله هو الله عز وجل، تربَّى على الأَنَفة والاستغناء عن المخلوقين، وعلم أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو التعلقُ بالله تعالى والتوكل عليه، وعبادته والالتجاء إليه، مع الأخذ بأسباب الجد والعمل، وبذلك يحفظ المسلم ماء وجهه من التذلُّل والسؤال، وخفض الأكُفِّ والانكسار للأشخاص مهما كانوا، فيحفظ كرامته، وتبقى له عزته ومكانته.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧/ ١٢٧.

المبحث السادس

في قوله ﷺ: « وإذا استعنت فاستعن بالله »

الاستعانة: طلب العون من الله تعالى: إما بلسان المقال؛ كأن تقول، عند شروعك بالعمل: اللهم أعني، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله، أو بلسان الحال؛ وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى الله تعالى أن يعينك على هذا العمل، وأنه إن وَكَلك إلى نفسك وكَلَك إلى ضعف وعجز، أو طلب العون بهما جميعًا. والغالب أنَّ من استعان بلسان المقال فقد استعان بلسان الحال(١).

فتجب الاستعانة بالله تعالى على تحمل الطاعات، وترك المنهيات، كما تجب الاستعانة به سبحانه على الصبر على المقدورات؛ فإن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في الإتيان بهذه الأمور، ولا بد له من طلب الإعانة من ربه عز وجل، ولا معين للعبد على مصالح دينه ودنياه إلا الله سبحانه وتعالى، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن فرَّط في حق الله تعالى، لم يعنه الله، فهو المخذول.

يذكر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) أن الدين كله يرجع إلى العبادة والاستعانة؛ فالعبادة تبرُّؤ من الشرك، والاستعانة تبرُّؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن(٢)؛ مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل: ٩]، وقوله: ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا

---

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد ٣/ ١٣٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤.

بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ونحو ذلك من الآيات.

ولهذا أشار الإمام محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ)، أن معنى الاستعانة: «سؤال الله الإعانةَ، وهو التوكل والتبري من الحول والقوة»[(١)].

ويعرِّف أحد العلماء الاستعانة بقوله: «والاستعانة: هي الاعتماد على الله تعالى، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك»[(٢)].

ويؤكد هذا التعريف قولُه تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، هذه الآية العظيمة التي يتلوها المسلم في كل ركعة من ركعات صلواته، وهي آية من سورة الفاتحة، التي هي أعظيم السور في القرآن[(٣)].

ومعنى ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ : أي نخصك وحدك يا إلهنا بالعبادة والاستعانة، وذلك لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك، أي نوحدك ونطيعك خاضعين، ونطلب منك وحدك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا[(٤)].

«والقيام بعبادة الله تعالى، والاستعانة به هما الوسيلة الأبدية، والنجاة من

---

(١) تفسير الفاتحة ص٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٢٢.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ما جاء في الفاتحة.

(٤) انظر: معالم التنزيل ١/ ٤١، وتفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤،٢٥.

جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ، مقصودًا بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيه، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي»[١].

وجاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»[٢]، أي احرص على طاعة الله تعالى، والرغبة فيما عنده، واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك، ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة، ولا عن طلب الإعانة[٣].

ولهذا كان النبي ﷺ يعلِّم أصحابه خطبة الحاجة، وهي: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره...**»[٤] الحديث.

وأفاد شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه الخطبة تستحب في افتتاح مجالس التعليم، والوعظ، والمجادلة، وليست خاصة بالنكاح[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٢٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله، ح ٢٦٦٤.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي.

(٤) رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، ح ٢١١٨، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح، ح١١٠٥، والنسائي، في الجمعة، باب كيف الخطبة ٣/ ١٠٥، وابن ماجة، في النكاح، باب خطبة النكاح، ح١٨٩٢، وانظر: صحيح ابن ماجة ١/ ٣١٩، ح ١٥٣٥.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٨/ ٢٨٧.

وعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «**يا معاذ، إني والله لأحبك، فلا تدعنّ في دُبُر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١).

وكان النبي ﷺ يدعو، ويقول: «**ربّ أعني، ولا تُعن عليّ**»(٢) الحديث.

فالمسلم مطالَب بالاستعانة بالله تعالى في فعل المأمورات، واجتناب المنهيات.

يقول ابن تيمية عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : «وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء، وإذا كان قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في صلاة، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه...، كما أمر بهما في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ، والأمر له ولأمته، وأمره بذلك في أم القرآن، وفي غيرها، لأمته؛ ليكون فعلهم ذلك طاعة لله، وامتثالاً لأمره، لا تقدمًا بين يدي الله ورسوله...، وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عبادته وأذكاره ومناجاته، مثل قوله في الأضحية: «**اللهم هذا منك ولك وإليك**»(٣)؛ فإن قوله: «**منك**»، هو معنى التوكل والاستعانة، وقوله:

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الاستغفار، ح ١٥٢٢، والنسائي، في السهو، باب نوع آخر من الدعاء ٣/ ٥٣، وأحمد في المسند ٥/ ٢٤٥، وانظر: صحيح الكلم الطيب، ح١١٥، وصحيح الجامع الصغير ٢/ ١٣٢٠، ح ٢٠٦٣.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، ح ١٥١٠، والترمذي، في كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، ح ٣٥٤٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وانظر صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٦١، ح ٣٥٥١، وصحيح سنن ابن ماجة ٢/ ٣٢٤، ح٣٨٣٠.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، ح ٢٧٩٥.

«لك»، هو معنى العبادة»[١].

وقال في موضع آخر: «فإن الإخلاص والتوكل جِماع صلاح الخاصة والعامة، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فهاتان الكلمتان قد قيل: إنهما تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء»[٢].

ويذكر ابن القيم أن آية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ «متضمنة لأجَلِّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجَلُّ الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبودَ يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلُّ الوسائل، وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتضمنت التعبد باسم الرب، واسم الله، فهو يعبد بألوهيته، ويُستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه»[٣].

كما أن العبد مطالب بالصبر والاستعانة بالله تعالى عند وقوع المصائب والابتلاءات، ولهذا قال يعقوب عليه السلام، عند وقوع مصيبته: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

ولما قال أهل الإفك ما قالوا عن عائشة رضي الله عنها قالت: «والله ما أجد لي

---

(١) دقائق التفسير ١/ ١٧٣، ١٧٤، وانظر منهاج السنة ٤/ ٢٤٤.

(٢) دقائق التفسير، ص٢١٢.

(٣) كتاب الصلاة وحكم تاركها، ص١٠٤.

ولكم مثلاً إلا أبا يوسف، إذ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾، فبرأها الله مما قالوا»(١).

وعندما هدد فرعونُ موسى وقومَه، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فجاء الأمر على خلاف ما أراد فرعون، إذ أعزهم الله وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده(٢).

وأخبر الله تعالى عن الرسول ﷺ أنه لما كذبه قومه: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، أي: والله المستعان عليكم فيما تقولون وتفترون من التكذيب والإفك(٣).

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يدعو في قنوته بقوله: «اللهم إنا نستعينك، ونؤمن بك، ونتوكل عليك»(٤).

ولما بشَّر الرسولُ ﷺ عثمانَ بن عفان ﷺ الجنة، مع بلوى تصيبه، قال رضي الله عنه: «اللهم صبرًا، الله المستعان»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، ح ٢٦٦١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٩٧.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٦١/ ١ و ١٢/ ٤٢/ ١، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ٢/ ١٧٠، ح ٤٢٨.

(٥) أخرجه مسلم، في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضائل عثمان بن عفان ﷺ، ح ٢٤٠٣.

وقد قال الرسول ﷺ لأحد الصحابة: **«قل: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها كنز من كنوز الجنة»**[(١)].

يقول ابن حجر (ت٨٥٢هـ): «تسمى هذه الكلمة كنزًا؛ لأنها كالكنز في نفاسته، وصيانته عن أعين الناس؛ لأن معنى (لا حول) لا تحويل للعبد عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله، وحاصله: أن المراد أنها من ذخائر الجنة، أو من محصِّلات نفائس الجنة»[(٢)].

ويقول النووي: «قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له...»[(٣)].

فهي كلمة عظيمة تتضمن اعتراف العبد بأنه لا تحول له من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بإعانة الله وحده.

فالاستعانة لا تُطلب من أي إنسان، إلا عند الضرورة، وفيما يقدر عليه فقط، وإذا اضطر العبد الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه، فعليه أن يجعل ذلك وسيلة وسببًا، لا ركنًا يعتمد عليه، وإنما الركن الأصيل الذي يعتمد عليه في الدعاء والسؤال والاستعانة هو الله وحده لا شريك له.

كما أنّ على العبد إذا احتاج إلى الاستعانة بالمخلوق -كحمل صندوق مثلاً- أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، ح ٦٣٨٤.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ١٨٨، ٥٠٠، ٥٠١.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ٢٦.

لا يشعر نفسه أن هذه استعانة كاستعانة الخالق، وإنما عليه أن يشعر أنها كمعونة بعض أعضائه لبعض، كما لو عجَز عن حمل شيء بيد واحدة، فإنه يستعين على حمله باليد الأخرى(١).

وعلى هذا، فالاستعانة بالمخلوق، فيما يقدر عليه، كالاستعانة ببعض الأعضاء، فلا ينافي ذلك قوله ﷺ: **«فاستعن بالله»**.

فإذا وقع العبد في مكروه وشدة، فلا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله بعد الاستعانة بالله تعالى، ولا يكون هذا شكوى للمخلوق؛ فإنه من الأمور العادية، التي جرى العرف باستعانة الناس، ولهذا قال يوسف عليه السلام للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف: ٤٢].

والمصيبة العظيمة، والخطر الجسيم فيمن يسأل أصحاب القبور أو يستعين بهم، أو غيرهم ممن يسمَّوْن بالأولياء والصالحين، سواء أكانوا أمواتًا أم أحياءً، فيسألهم ويستعين بهم فيما لا يقدرون عليه من جلب نفع أو دفع ضر، أو رزق ولد، أو دخول الجنة، أو النجاة من النار، ونحو ذلك مما هو واقع في بعض البلاد، فإن هذا شرك بالله تعالى، إذ هو وحده القادر على كل شيء، وما دونه من نبي أو ولي لا يملك لنفسه جلب الخير، أو دفع الشر إلا بإذنه سبحانه وتعالى، ولهذا قال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد ٣/ ١٣٠، وشرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٢،٤٥٣.

أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فهذه الآية تبين جهل من يقصد النبي ﷺ، ويدعوه لحصول نفع، أو دفع ضر، فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله.

ويقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ [الحج: ١١-١٣]، هذه صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه، ولا لغيره، نفعًا ولا ضرًا ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ الذي بلغ في البعد حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله، أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب؛ ولهذا قال ﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ ؛ فإن ضرره في العقل والبدن، والدنيا والآخرة معلوم، ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ أي: لبئس هذا المعبود والقرين، الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير حصول النفع، ودفع الضر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم(١).

ولهذا ينبه الله تعالى على حقارة الأصنام، وسخافة عقول عابديها بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٤٨٤.

ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

يقول ابن دقيق العيد في شرح هذا الجزء من توجيه رسول الله ﷺ لابن عباس: «أرشده إلى التوكل على مولاه، وأن لا يتخذ إلهًا سواه، ولا يتعلق بغيره، في جميع أموره، ما قلَّ منها وما كثُر، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، فبقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى، بطلبه، أو قلبه، أو بأمله، فقد أعرض عن ربه، بمن لا يضره ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله»(١).

ومما يدل عليه قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» أن الإيمان يشمل العقائد القلبية، والأقوال، والأعمال، كما هو المذهب الحق، وهو قول أهل السنة والجماعة؛ فإن (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) (٢)، وهذه الشُّعب التي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظاهرة كلها من الإيمان.

ويدل هذا الحديث العظيم على أنه مِنْ نَقْصِ التوحيد أنَّ الإنسان يسأل غير الله، ولهذا قال العلماء بكراهية المسألة لغير الله عز وجل، في قليل أو كثير، والله

---

(١) شرح الأربعين حديثًا النووية ص٥٥.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، ح ٣٥.

سبحانه وتعالى إذا أراد إعانة أحد يسَّر له العون؛ سواء أكان بأسباب معلومة أو غير معلومة، فقد يعين الله العبد بسببٍ غير معلوم له، فيدفع عنه من الشرّ ما لا طاقةَ لأحد به، وقد يعينه الله على يد أحد من الخلق يسخِّره له، ويُذَلِّلُـه له حتى يعينه، ولكن مع ذلك لا يجوز للعبد إذا أعانه الله على يد أحد أن ينسى المسببَ، وهو الله عز وجل[1].

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٣.

المبحث السابع

في قوله ﷺ: « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك »

يبين الرسول ﷺ في هذه الكلمات أن الأمة لو اجتمعت واتفقت كلُّها على نفع إنسان بشيء، لم يستطيعوا نفعه إلا بشيء قد كتبه الله وقدَّره له، وإن وقع منهم نفع له، فإنما هو من الله تعالى؛ لأنه هو الذي كتبه وقدَّره.

فالرسول ﷺ لم يقل: لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك، وإنما قال: «لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك»، فالناس ينفع بعضهم بعضًا، لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان، فالفضل فيه لله عز وجل أولاً، فهو الذي سخَّر لك من ينفعُك، ويحسن إليك، ويزيل كربتك.

وكذلك لو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، «والإيمان بهذا يستلزم أن يكون الإنسان متعلقًا بربه، ومتَّكِلاً عليه، لا يهتم بأحد؛ لأنه يعلم أنه لو اجتمع كل الخلق على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وحينئذ يُعلِّق رجاءه بالله، ويعتصم به، ولا يهمه الخلق، ولو اجتمعوا عليه، ولهذا تجد الناس في سلف هذه الأمة لما اعتمدوا على الله وتوكلوا عليه لم يضرّهم كيد الكائدين، ولا حسد الحاسدين: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾»[(١)].

فالإيمان بالقضاء والقدر، والاعتماد على الله وحده، في كل الشؤون، سكينة واطمئنان للعبد؛ إذ لا يبالي بما يدبِّره الخلق أو يهددونه به؛ لأنه يعلم أن الخير والشر بتقدير الله تعالى، والنفع والضر بإرادته وحكمته سبحانه، فلا يستطيع

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٤،٤٥٥.

أحد من الخلق أن يحقق للعبد أذىً أو ابتلاءً إلا بإذن الله تعالى لحكم يريدها سبحانه، بل الله يدافع عنه وينصره ويؤيده، وكذلك لا يستطيع أحد من الخلق تحقيق منفعة للعبد لم يأذن بها الله تعالى.

كما أن الإيمان بالقضاء والقدر ، وبما جاء في هذا الجزء من الحديث، من أعظم أسباب الشجاعة والإقدام والجهاد، فلن يستطيع الأعداء أن يضروا أحدًا بشيء مهما خططوا وتآمروا إلا بشيء قد كتبه الله وقدَّره لِحِكَمٍ أرادها.

والشجاعة ليست هي قوةَ البدن؛ فقد يكون الرجل قويَّ البدن، ضعيفَ القلب، وإنما الشجاعة قوةُ القلب وثباته، فإن القتال مداره على قوة البدن، وصنعته للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة، دون التهوُّر الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم(١).

فهذا الحديث العظيم يوجب الإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، والإيمان به يتضمن الإيمان بمراتبه الأربع، وهي:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء، الذي لا يعزُب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه تعالى قد عَلِمَ جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وأقوالهم وأعمالهم وجميع حركاتِهم وسكناتِهم، وإسرارهم وعلانيتهم، ومَنْ هو منهم مِنْ أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ [سورة الحشر: ٢١]،

---

(١) انظر: الاستقامة ٢/ ٢٧١.

وقال سبحانه: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ [سبأ: ٣]، وقال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال ﷺ: «**إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»(١)، ولما سئل ﷺ عن أولاد المشركين قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»(٢)، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الحديث: «أي: يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديث إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة، فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولاً في عَرَصَة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار**». فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم»(٣).

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله تعالى قد كتب جميع ما سبق به علمه أنه كائن، وفي ضمن ذلك الإيمان باللوح والقلم.

قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، ح ٢٦٦٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، ح ٦٥٩٧، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ح ٢٦٥٩.

(٣) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٢٤٦.

تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وقال ﷺ: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتب شقيةً أو سعيدةً**»(١).

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهما متلازمتان من جهة ما كان وما سيكون، ولا ملازمةَ بينهما من جهة ما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله تعالى، فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله إياه، لا لعدم قدرة الله عليه، تعالى الله عن ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ومن أدلة هذه المرتبة قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال ﷺ: «**اللهم مصرِّفَ القلوب صرِّفْ قلوبنا على طاعتك**»(٢).

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه ما من ذرة في

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ح ٤٩٤٨، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، ح ٢٦٤٨.

(٢) رواه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ح ٢٦٥٤.

السماوات ولا في الأرض ولا فيما بينهما إلا والله خالقُها وخالق حركاتها وسكناتها، سبحانه وتعالى، لا خالقَ غيره، ولا ربَّ سواه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [فاطر:٣]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾ [الروم: ٤٠]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، وعن حذيفة ﷺ مرفوعًا: «إن الله يصنع كلَّ صانع وصنعته»[1].

والإيمان بالقدر نظام التوحيد، كما أن الإيمان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجُز عن شره هي نظام الشرع، ولا ينتظم أمر الدين ويستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل الشرع، فمن نفى القدر زاعمًا منافاتِه للشرع فقط، عطَّل الله عن علمه وقدرته، وجعل العبد مستقلاً بأفعاله خالقًا لها، فأثبت مع الله تعالى خالقًا، بل أثبت أن جميع المخلوقين خالقون، ومن أثبت القدر محتجًا به على الشرع، نافيًا عن العبد قدرته واختياره، فقد نسب الله تعالى إلى الظلم.

وليعلم أن الله عز وجل الذي أمرنا بالإيمان بالقضاء والقدر، أمرنا بالعمل والأخذ بالأسباب، فقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال الرسول ﷺ: «اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له»[2]، وفي هذا رد على المتخاذلين،

---

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص٧٣، وابن أبي عاصم في السنة ٣٥٧،٣٥٨، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ١٨١، ح ١٦٣٧.

(٢) جزء من حديث سيأتي تخريجه ص٨٥.

المستسلمين لأهوائهم وشهواتهم، محتجِّين بتقدير الله تعالى ذلك عليهم، فعلى المسلم أن يحرص على حسن الاتباع لما جاء به الرسول ﷺ، مع إخلاص العمل لله تعالى، وسلامة العقيدة، والاجتهاد بالأخذ بالأسباب، والسعي وبذل الجهد، فمن ترك الأسباب محتجًا بالقدر، فقد عصى الله تعالى، وخالف شرعه.

والمؤمنون حقًا يؤمنون بالقدر خيره وشره، وأن الله خالق أفعال العباد، وينقادون للشرع: أمره ونهيِه، ويحكِّمونه في أنفسهم سرًا وجهرًا، وأن للعباد قدرة على أعمالهم، ولهم مشيئة وإرادة، وأفعالهم تضاف إليهم حقيقة، وبحسبها كُلِّفوا، وعليها يثابون ويعاقبون، ولكنهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، ولا يشاؤون إلا أن يشاء الله[(١)].

قال أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّي (ت ٣٦٠هـ): «قد جرى القلم بأمره عز وجل في اللوح المحفوظ بما يكون، من بِرٍّ أو فجور، يثني على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقُه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]، وكذا ذم قومًا عملوا بمعصيته، وتوعَّدهم على العمل بها وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء»[(٢)].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٨/ ٤٤٩-٤٥٩، وأعلام السنة المنشورة ص١٣٩-١٤١.

(٢) الشريعة ص ١٥٢.

وقوله في الرواية الثانية: «**واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبَك، وما أصابك لم يكن ليخطئك**»، هو توجيه إلى الإيمان بالقضاء والقدر، خيرِه وشرِّه، فقوله: (واعلم أن ما أخطأك) أي: من المقادير، فلم يصِلْ إليك، (لم يكن) مقدَّرًا عليك (ليصيبك)؛ لأنه بان بكونه أخطأك أنه مقدَّر على غيرك، (وما أصابك) منها (لم يكن) مقدرًا على غيرك (ليخطئك)، وإنما هو مقدر عليك؛ إذ لا يصيب الإنسان إلا ما قُدِّر عليه، ومعنى ذلك: أنه قد فرغ مما أصابك أو أخطأك من خير وشر، فما أصابك فإصابته لك محتومة لا يمكن أن يخطئك، وما أخطأك فسلامتك منه محتومة، فلا يمكن أن يصيبك، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وثبت في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيمَ العمل اليوم؟ أفيما جفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «**بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**» قال: ففيم العمل؟ قال: «**اعملوا، فكلٌّ ميسَّر**»[1] يعني: مُيسَّر لما خُلِقَ له.

فلا بد من الإيمان بأن كل ما يصيب العبد مما يضره وينفعه في دنياه، فهو

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ح ٢٦٤٨.

مقدَّر عليه، وأنه لا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدَّر عليه، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعًا.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

يعني: أن من أصابته مصيبة، فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هَدَى الله قلبه، وعوَّضه عما فاته من الدنيا هُدًى في قلبه ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه، روى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال، في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ : يعني يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[(١)].

يقول ابن دقيق العيد: «هذا هو الإيمان بالقدر، والإيمان به واجب، خيره وشره، وإذا تيقَّن المؤمن هذا، فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به»[(٢)].

ومما يجب أن يعلم أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، والحرص على العمل الصالح وحسن الاتباع، ولهذا لما أخبر النبي ﷺ أصحابه بسبق المقادير وجَرَيانها وجفوف القلم بها، قال بعضهم: أفلا نتَّكل على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ: **«اعملوا، فكل ميسر»**[(٣)]، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٧٥.

(٢) شرح الأربعين حديثًا النووية، ص٥٥.

(٣) سبق تخريجه ص٨٥.

لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٧].

«فالله عز وجل قدَّر المقادير وهيأ لها أسبابًا، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسَّر كلاً من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له ميسَّر له؛ فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها، كان أشد اجتهادًا في فعلها والقيام بها، وأعظم منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه، وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن»(١).

وقد قال النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تعجز**»(٢)، وروي عنه ﷺ أنه لما قيل له: أرأيت دواءً نتداوى به ورُقًى نسترقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»(٣)، يعني: أن الله سبحانه وتعالى قدر الخير والشر، وأسبابَ كلٍّ منهما(٤).

والأسباب وإن عظُمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لا بد أن يُمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة، وعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها

---

(١) أعلام السنة المنشورة ص١٣٤.

(٢) سيأتي تخريجه بعد قليل ص٩٠.

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ح٣٤٣٧، والترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الأدوية، ح ٢٠٦٥، وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٤) انظر أعلام السنة المنشورة ص ١٣٤-١٣٥.

قد كُتب في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، «وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير»(١).

ولهذا جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشرِّه، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(٢).

يقول ابن رجب: «واعلم أن مدار جميع هذه الوصية من النبي ﷺ لابن عباس على هذا الأصل، وما بعده وما قبله متفرِّع عليه، وراجع إليه، فإنه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، من خير أو شر، أو نفع أو ضرٍّ، وأن اجتهاد الخلق كلهم جميعًا على خلاف المقدور غير مفيد شيئًا البتة، علم حينئذ أن الله تعالى وحده هو الضار النافع، والمعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيدَ ربه عز وجل، وإفراده بالاستعانة والسؤال والتضرع والابتهال، وإفراده أيضًا بالعبادة والطاعة؛ لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضارِّ، ولهذا ذم الله سبحانه وتعالى من يعبد ما لا ينفع ولا يضر، ولا يغني عن عابده شيئًا. وأيضًا، فكثير ممن لا يحقق الإيمان وقلبه يقدّم طاعة مخلوق على طاعة الله رجاء نفعه أو دفعًا لضره، فإذا تحقق العبد تفرُّدَ الله وحده بالنفع والضر، وبالعطاء والمنع، أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة، ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعًا،

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص١٢١، ٧٨١.

(٢) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، ح ٢١٤٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٤٤٦، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ٢٤٣٩.

كما يوجب ذلك أيضًا إفراده سبحانه بالاستعانة به والطلب منه»[١].

ثم قال أيضًا شارحًا حديث ابن عباس: «ثم عقب ذلك بذكر إفراد الله بالسؤال وإفراده بالاستعانة، وذلك يشمل حال الشدة وحال الرخاء، ثم ذكر بعد هذا كله الأصل الجامع الذي تنبني عليه هذه المطالب كلها، وهو تفرد الله عز وجل بالضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه لا يصيب العبد في ذلك كله إلا ما سبق تقديره وقضاه له، وأن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع أو ضر غير مقدَّر في الكتاب السابق، وتحقيق هذا يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق، وعن سؤالهم واستعانتهم ورجائهم بجلب نفع أو دفع ضر، وخوفهم من إيصال ضر أو منع نفع، وذلك يستلزم إفراد الله سبحانه بالطاعة والعبادة أيضًا، وأن يقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعًا، وأن يتَّقي سخطه، ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا»[٢].

وفي قوله ﷺ: (وما أصابك لم يكن ليخطئك) أعظم وقاية ضد القلق النفسي، وسائر الهواجس والاضطرابات النفسية، التي يشتكي منها كثير من الناس، حتى سماها بعضهم بمرض العصر، فمن آمن بهذا الحديث اطمأن قلبه، وانشرح صدره، وعلم أن كل ذلك بقضاء الله وقدره، وأنه خير له، فيبتعد عن التضجُّر والزفرات والحسرات، جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص

---

(١) نور الاقتباس ص٤٦.

(٢) المصدر السابق ص٤٧.

على ما ينفعك، واستعِنْ بالله، ولا تعجِزْ، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»[١].

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، ح ٢٦٦٤.

المبحث الثامن

في قوله ﷺ: « رفعت الأقلام وجفت الصحف »

أي: تركت الكتابة في الصحف، لفراغ الأمر وانبرامه منذ أمد بعيد، فقد تقدم كتابة المقادير كلِّها، فما كتبه الله، فقد انتهى ورُفع، والصحف جفَّت من المداد، ولم يبق مراجعة. فما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

وهذا يدل على أن ما في علم الله تعالى، أو ما أثبته سبحانه في أم الكتاب ثابت لا يتبدل ولا يتغير ولا يُنسخ، وما وقع وما سيقع كله بعلمه تعالى وتقديره[1]، وهذه الجملة من الحديث تأكيد لما سبق من الإيمان بالقدر، والتوكل على الله وحده، وأن لا يتخذ إلهًا سواه، فإذا تيقن المؤمن هذا، فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به، ولهذا قال: (**رفعت الأقلام وجفَّت الصحف**)؛ أي: لا يكون خلاف ما ذكر لك بنسخ ولا تبديل[2].

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقوله ﷺ: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»[3].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٥، وبهجة الناظرين شرح رياض الصالحين ١/ ١٣٦.

(٢) انظر: شرح الأربعين حديثًا النووية ص٥٥.

(٣) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر، ح ٤٧٠٠، والترمذي في كتاب القدر، ح٢١٥٥، وأحمد ٥/ ٣١٧، وانظر: صحيح سنن الترمذي ٢/ ٤٥٠، ح ٢١٥٥.

وقوله: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١).

وعن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**فرغ الله إلى كل عبد من خمس: من أجله، ورزقه، وأثره، ومضجعه، وشقيٌّ أو سعيد**»(٢).

وعن جابر ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يُستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**» قال: ففيم العمل؟ قال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ**»(٣).

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله كل نفس، وكتب حياتها، ورزقها، ومصائبها**»(٤).

وفي قوله: (رفعت الأقلام) جاءت (الأقلام) في هذا الحديث وفي غيره، مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلامًا، وقد ذكر العلماء أقسامًا للأقلام؛ وهي(٥):

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو القلم الذي خلقه الله،

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر، باب احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، ح ٢٦٥٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٩٧، وابن أبي عاصم في السنة، ح٣٠٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ٧٧٤، ح ٤٢٠١.

(٣) سبق تخريجه ص٨٥.

(٤) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر، ورواه أحمد ١/ ٤٤٠، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٦٦٤، ح ٢١٤٣.

(٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤٥-٣٤٨ بتصرف يسير.

وكتب به في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق، وهذا أول الأقلام وأفضلها وأجلُّها، كما دل على ذلك قوله ﷺ: « **أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**».

القلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وقد رفع النبي ﷺ ليلة أُسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام[١]، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوجبه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدير بها أمر العالم العلوي والسُّفلي.

القلم الثالث: حين خلق آدم عليه السلام، وهو قلم عام أيضًا، لكن لبني آدم.

القلم الرابع: حين يُرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويأمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، كما قال ﷺ: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون عَلقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد**»[٢] الحديث.

القلم الخامس: الموضوع على العبد، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، ح ٣٤٩، ومسلم كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ح ٢٦٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ح ٣٢٠٨، ومسلم كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ح ٢٦٤٥.

﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقوله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستقيظ، والمجنون حتى يعقل، وعن الصبي حتى يحتلم**»[(١)].

وقد اختلف العلماء هل القلم أولُ المخلوقات أم العرش؟

- فقيل بأن العرش قبل القلم؛ لقوله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»، فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم.
- وقيل بأن القلم أو المخلوقات بدليل قوله ﷺ: «**أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**».

ولعل القول الأول أصحُّ للحديث الصريح الصحيح السابق الذي يدل على أن العرش مخلوق قبل تقدير الله مقادير الخلق، أما قوله ﷺ: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب**» فإن معناه: عند أول خلقه قال له: اكتب، ويدل عليه لفظ: «**أول ما خلق الله القلم قال له اكتب**»، بنصب (أولَ) و(القلمَ)، حُملت رواية الرفع (أولُ) و(القلمُ) على أن القلم أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق

---

(١) علقه البخاري في صحيحه، في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق، وأخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب: في المجنون يسرق، أو يصيب حدًا، ح ٤٣٩٩، والترمذي في كتاب الحدود، باب: ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، ح ١٤٢٣، وابن ماجة، كتاب الطلاق، باب: طلاق المعتوه والصغير، ح ٢٠٤٢، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ١١٧، ح ١٤٢٣.

الحديثان؛ إذ حديث القول الأول يدل على أن العرش سابق على التقدير، وحديث القول الثاني يدل على أن التقدير مقارن لخلق القلم[١].

وقد رجح القولَ الأول ابنُ تيمية، وذكر أنه مذهب كثير من السلف والخلف[٢].

هذا وقد رجَّح بعضُ أهل العلم أن القلم أول مخلوق، واستدل برواية: «**إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم، وأمره أن يكتب كل شيء يكون**»[٣]، قال الألباني: «وفيه رد على من يقول بأن العرش هو أول مخلوق، ولا نصَّ في ذلك عن رسول الله ﷺ، فالأخذ بهذا الحديث – وفي معناه أحاديث أخرى– أولى؛ لأنه نص في المسألة، ولا اجتهاد في مورد النص، كما هو معلوم، وتأويله بأن القلم مخلوق بعد العرش باطل؛ لأنه يصح مثل هذا التأويل لو كان هناك نص قاطع على أن العرش أو المخلوقات كلها، ومنها القلم، أما ومثل هذا النص مفقود، فلا يجوز هذا التأويل»[٤].

والإيمان باللوح والقلم هو من الإيمان بالقضاء والقدر، ولهذا يذكرهما أهل

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤٥.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢/ ٢٧٥ و ١٦/ ١٣٩، ومنهاج السنة النبوية ١/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة، ح١٠٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢٧٥، ح ١٣٣.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢٥٨.

العلم ضمن الإيمان بالمرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر، وهي مرتبة كتابة المقادير، ويدخل في هذه المرتبة خمسة من التقادير هي:

الأول: التقدير الأزلي: وهو كتابة المقادير قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، عندما خلق الله القلم، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال الرسول ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء**»[١]، وقال ﷺ: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب، وماذا أكتب؟ فقال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»[٢].

الثاني: التقدير العمري، حين أخذ الميثاق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان -يعني عرفه- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنشرها بين يديه، ثم كلّمهم قبلاً، قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ »[٣].

---

(١) سبق تخريجه ص٩٤.

(٢) سبق تخريجه ص٩٣.

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد ١/ ٢٧٢، وابن أبي عاصم ٢٠٢، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ١٦٢٣.

الثالث: التقدير العمري أيضًا، عند تخليق النطفة في الرحم، قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢] وقوله ﷺ: «**إن أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون عَلَقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد..**»[١] الحديث.

الرابع: التقدير الحولي، في ليلة القدر، قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

الخامس: التقدير اليومي، قال تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

«وكل هذه التقادير كالتفصيل في القدر السابق، وهو الأزلي الذي أمر الله تعالى القلم عند خلقه أن يكتبه في اللوح المحفوظ، وبذلك فسر ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وكل **ذلك** صادر عن علم الله الذي هو صفته تبارك وتعالى»[٢].

---

(١) سبق تخريجه ص٩٥.

(٢) أعلام السنة المنشورة ص١٣٣.

المبحث التاسع

في قوله ﷺ: « تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »

يعني: أن العبد إذا اتقى الله، وحَفِظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرَّف بذلك إلى الله، فعرفه ربُّه في الشدة، ورعى له تعرُّفه إليه في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة.

يذكر ابن رجب أن معرفة العبد لربه نوعان: «أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه».

كما يذكر ابن رجب أن معرفة الله لعبده نوعان، أيضًا، هما: الأول: معرفة عامة، وهي علمه تعالى بعباده واطِّلاعه عليهم؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق:١٦].

والثاني: معرفة خاصة، وهي تقتضي المحبة وإجابة الدعاء ونحو ذلك[(١)].

ويقول ابن علان (ت ١٠٥٧هـ): «..، (تعرّف) بتشديد الراء: أي تحبب (إلى الله في الرخاء) بالدأب في الطاعات، والإنفاق في وجوه القُرَب والمثوبات، حتى تكون متصفًا عنده بذلك، معروفًا به، (يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك، وجعله لك من كل ضيق فرجًا، ومن كل هم مخرجًا، بواسطة ما سلف منك من ذلك التصرف»[(٢)].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ص٢٥٢.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ١/ ٢٣٢.

والمراد بقوله ﷺ (يعرفك في الشدة): أي المعرفة الخاصة التي تقتضي النصر والتأييد والقرب، قال ﷺ عن ربه عز وجل: **«وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»**[(١)].

فمتى تعرّف العبد إلى الله في الرخاء المعرفة التامة الخاصة؛ وذلك بحرصه على إكمال إخلاص عبادته، وخضوعه لله تعالى، واتباعه لرسوله ﷺ، عرفه الله في كل وقت، وبخاصة في وقت الشدائد والكُرَب، فينصره الله ويؤيده، ويسدده في سمعه وبصره، ويده ورجله، ويعطيه سؤاله، ويعيذه ويحفظه.

يقول ﷺ: **«من سره أن يستجيب له عند الشدائد والكُرَب، فليكثر الدعاء في الرخاء»**[(٢)].

ويونس عليه السلام إنما نجاه الله بسبب ذكره الله في الرخاء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٤].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ﴾ يعني: يونس كان من

---

(١) سبق تخريجه ص٤٧.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم (٩)، ح ٣٣٧٩، والحاكم ١/ ٥٤٤، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ١٤٠، ح ٥٩٣.

المصلين لله، قبل البلاء، الذي ابتُلي به في العقوبة بالحبس في بطن الحوت، ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء؛ فأنقذه ونجاه»(١). وأشار إلى هذا القول ابن كثير بقوله: «قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء» ثم نسبه إلى بعض أهل العلم(٢). واستدل عليه بحديث ابن عباس(٣)، وقيل: معناه: لولا أنه سبح الله في بطن الحوت، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والتوبة إلى الله(٤).

وفرعون كان طاغيًا باغيًا، فلما أدركه الغرق ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] فقال الله تعالى له: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١]، أي: أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه، وكنت من المفسدين في الأرض الذين أضلوا الناس، فهو سبحانه يبين أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له(٥).

ومن اتقى الله في جميع أحواله جعل الله له مخرجًا من المضائق والمحن، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢،٣]

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٣/ ٦٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٢.
(٣) انظر: البداية والنهاية ١/ ٢٧٠.
(٤) انظر المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٢١.

أي من يتق الله يجعل له مخرجًا ونجاةً من كل كرب في الدنيا والآخرة، ومن كل شيء ضاق على الناس، ويرزقه من جهة لا تخطر ببال، ولهذا يُروى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال عن هذه الآية بأنها أكبرُ آية في القرآن فرجًا[١]، «فكل من اتقى الله، ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثبِّته في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه: أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة، ويسوق الله الرزق للمتقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به»[٢].

وإذا كان من يتقي الله يجعل له فرجًا ومخرجًا، فإن من لم يتق الله يقع في الآصار والأغلال والشدائد التي لا يقدر على التخلص منها، والخروج من تبعاتها، قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

---

(١) انظر: دقائق التفسير ٥/ ٨-١٠، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٨٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٨٠٦.

فمن عرف الله واستقام على شرعه تنزلت عليه الملائكة بأن لا يخاف ولا يحزن، ويبشرونه بالجنة، وذلك عند موته وفي قبره وحين يبعث، وقيل: إن هذا التنزُّل عند الاحتضار، والصحيح أنه في الأحوال الثلاثة المذكورة آنفًا؛ ولهذا قال ابن كثير بعد ذكره أن البشارة من الملائكة للعبد تكون عند الموت، وفي القبر، وحيث البعث: «وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدًا، وهو الواقع»(١).

وإذا علم من قوله ﷺ: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) أن التعرُّف إلى الله في الرخاء يؤدي إلى معرفة الله لعبده في الشدة، وعلم أن شدة الموت من أعظم الشدائد التي يلقاها العبد المؤمن، فالواجب المبادرة بالاستقامة والاستعداد للموت بالأعمال الصالحة وإخلاصها لله وحده لا شريك له، فهي السبيل إلى تنزُّل الملائكة على العبد المؤمن عند الاحتضار بألا يخاف ولا يحزن، والبشارة له بالجنة؛ كل ذلك في وقت الشدائد والكُرَب عند الموت، وفي القبر، وحين البعث، فلا بد من الاستعداد لتلك الأهوال العظيمة؛ فإن المرء لا يدري متى يفاجئه الموت، ويقبل على تلك الشدائد.

يقول الطبري في تفسير الآيات السابقة في سورة فصلت: «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده لا شريك له، وبرئوا من الآلهة والأنداد، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ على توحيد الله، ولم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى...، تتهبط عليه الملائكة عند نزول الموت بهم...، قائلة: لا تخافوا ما تقدمون عليه من بعد مماتكم، ولا تحزنوا على ما

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٠١.

تخلفونه وراءكم...، وقيل: إن ذلك في الآخرة، وقوله: ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يقول: وسُرُّوا بأن لكم في الآخرة الجنة التي كنتم توعدونها في الدنيا على إيمانكم بالله واستقامتكم على طاعته»(١).

ويقول في تفسير آية الأحقاف: «يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ﴾ الذي لا إله غيره ثم استقاموا على تصديقهم بذلك، فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه، فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا أهل الجنة وسكانها ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ يقول: ثوابًا منا لهم، آتيناهم ذلك على أعمالهم الصالحة، التي كانوا في الدنيا يعملونها»(٢).

فلا بد من الاستقامة على شرع الله، والحرص على سلامة التوحيد مما قد يشوبه، في حال الصحة والرخاء، وفي جميع الأحوال، والاستعداد للقاء الله، فمن عرف الله في هذه الأحوال عرفه الله عند الشدائد، فكان معه بتأييده وتوفيقه، يعينه ويتولاه، ويثبِّته على التوحيد، في الحياة وعند المات، ومن نسي الله في حال صحته ورخائه، ولم يستعدَّ للقائه نسيه الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٤/ ٧٣، ٧٤.

(٢) المصدر السابق ٢٦/ ١١ .

ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨،١٩].

ويجب التعرف إلى الله في رخاء العيش، وتكاثر الأموال، وذلك بأن تكون مصادرها حلالاً، بعيدة عن الربا، ونحوه، وأن تؤتى زكاتها، وينفق على أوجه الخير منها، ويحذر من الطغيان والإنفاق على المحرمات والمنهيات، فمن تعرف إلى الله في أمواله، وتصرف فيها وفق الشرع الحكيم عرفه الله في الشدة، وذلك بأن يسهل له أبواب الرزق، ويسدده لاستعماله على الوجه المطلوب شرعًا، ويلهمه شكره وحمد الله تعالى عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢،٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وقال عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]؛ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تبديل، ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدًا ﷺ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، والأمر باتباعه، حتمًا لا محالة، ومن ثم ﴿لَأَكَلُوا۟ ....﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: **«يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتُليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم**

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٢ .

تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أُخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلّط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»(١).

وفي رواية: «ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم، وما ظهرت فاحشة في قوم قط إلا سلط الله عز وجل عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر»(٢).

فمن عمل لله بالطاعة في جميع أوقاته، ولا سيما في الرخاء، عرفه الله في الشدة ووجده تجاهه ينصره ويؤيده ويفرج عنه، كما جرى للثلاثة الذين أصابهم المطر، فأوَوا إلى غار، فانحدرت صخرة، فانطبقت عليهم، فقالوا: انظروا ما عملتم من الأعمال الصالحة، فاسألوا الله تعالى بها، فإنه ينجيكم، فذكر كل واحد منهم سابقةً سبقت له مع ربه في الرخاء، فانحدرت عنهم الصخرة، فخرجوا يمشون(٣).

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح ٤٠١٩، والحاكم ٤/ ٥٤٠، وصححه الألباني، انظر: صحيح ابن ماجة ٢/ ٢٧٠، ح ٣٢٤٦، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢١٦، ٢١٧، ح١٠٦.

(٢) رواه الحاكم ٢/ ١٢٦، والبيهقي ٣/ ٣٤٦، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢١٩، ح ١٠٧.

(٣) انظر نص الحديث في صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا بغير إذنه فرضي، ح٢٢١٥، وفي صحيح مسلم، كتاب الذكر، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، ح ٢٧٤٣.

المبحث العاشر

في قوله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»

يجب على كل مسلم أن يعلم علم اليقين أن النصر مع الصبر، فإذا صبر وفعل ما أمره الله به من وسائل النصر؛ فإن الله تعالى ينصره؛ لأن العدو يصيب الإنسان من كل جهة، فقد يشعر الإنسان أنه لن يطيق عدوه، فيستحسر ويدع الجهاد، وقد يشرع في الجهاد، فإذا أصابه الأذى استحسر، وتوقف، وقد يستمر، فيصيبه الألم من عدوه، فيكون عُرضةً لليأس والخذلان. فهذه الأمور كلها يجب الصبر عليها، والحذر من اليأس وأسبابه، وليعلم المسلم أن الصبر من أعظم أسباب النصر[1]، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

في هاتين الآيتين يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد، وقُتل منهم سبعون، مسلِّيًا لهم قائلاً: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ أي: لا تضعُفوا بسبب ما جرى ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: العاقبة والنصر لكم أيها المؤمنون، ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ أي: إن كنتم قد أصابتكم جراح، وقُتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح، ثم قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: نديل عليكم الأعداء تارة -وإن كانت لكم العاقبة- لما لنا في ذلك من الحكمة؛ ولهذا

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٥.

قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء، ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ يعني: يقتلون في سبيله ، ويبذلون مُهَجَهم في مرضاته، ثم قال: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١]، أي: يكفر عنهم ذنوبهم، إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، أما الكافرون، فإنهم إذا ظفروا وبغَوْا وبطروا، فيكون ذلك سببَ دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم(١).

ومن كلام السعدي في تفسير هذه الآيات قوله: «يقول تعالى مشجعًا لعباده المؤمنين، ومقويًا لعزائمهم، ومنهضًا لهممهم، ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾؛ أي: ولا تهنوا أو تضعفوا أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى؛ فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وأعْوَن لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم، وصبِّروها، وادفعوا عنها الحزن، وتصلَّبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغي ما وعد الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك»(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٨٥، ٣٨٦ .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص١١٧ .

أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جُدُّوا فيهم، وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فكما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، وأنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وهم لا يرجون شيئًا من ذلك، فأنتم أوْلى بالجهاد منهم، وأشد رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلانها، وهو سبحانه وتعالى أعلم وأحكم فيما يقدِّره ويقضيه، وينفذه ويمضيه في أحكامه الكونية والشرعية، فإذا صبر الإنسان وصابَرَ ورابط؛ فإنه الله سبحانه ينصره[1].

فهذه النصائح والتوجيهات توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط، والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزّه الدنيوي، إن ناله، ليس كمن يقاتل ويصبر لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته[2].

وفي قوله ﷺ: (واعلم أن النصر مع الصبر) تنبيه على أن الناس في هذه الدار معرَّضون للمحن والمصائب، وطروق المنغِّصات والمتاعب، لا سيما الصالحون منهم، فينبغي للمسلم أن يصبر ويحتسب، ويرضى بالقضاء والقدر، وينتظر وعد الله تعالى له بأن عليه صلوات من ربه ورحمة، وبأنه المهتدي، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٢١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص١٦٣.

وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، فالنصر من الله تعالى للعبد على جميع أعداء دينه ودنياه إنما يوجد (مع الصبر) على طاعته، وعن معصيته، فهو سبب للنصر، ولهذا فإن الغالب على من انتصر لنفسه عدم النصر والظَّفر، وعلى من صبر ورضي بقضاء الله تعالى وحُكمه تعجيلهما له كما هو المعهود من مزيد كرمه وإحسانه(١).

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]؛ لأنه سبب لنصرهم على أعدائهم وأنفسهم وإعلاء لدرجاتهم، وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

يقول السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ الآيات: «أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السَّرَّاء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، ورحمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن...، فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين؛ فالجازع حصلت له المصيبتان: فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله

(١) انظر: شرح الأربعين حديثًا النووية ص٥٥،٥٦، وفتح المبين لشرح الأربعين ص١٧٧.

بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفَّقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخُّط قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه؛ لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها؛ فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب؛ فهذا قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي: بشِّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، فكون العبد لله، وراجعًا إليه، من أقوى أسباب النصر.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسارة، فما أعظم الفرق بين الفريقين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها؛ لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر»(١).

ويقول ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن. إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»(٢).

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٥٨، ٥٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ح ٢٩٩٩.

وقال ﷺ: «**إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزِع فله الجزع**»(١)، يدل هذا الحديث على أن صاحب البلاء يكون محبوبًا عند الله تعالى إذا صبر على البلاء، ورضي بقضاء الله عز وجل.

ومن الأدلة التي تؤكد أن النصر مع الصبر: كثرة الآيات والأحاديث التي تأمر بالصبر عند لقاء العدو؛ منها: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقوله: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وقوله في قصة طالوت: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقوله ﷺ: «**لا تمنَّوْا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(٢).

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ح ٢٣٩٦، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ح ٤٠٣١، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢٧٦، ح١٤٦، وصحيح الجامع الصغير ١/ ٣٥١، ح ١٧٠٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، ح ٣٠٢٦.

والمسلم في هذه الحياة معرض لفتن كثيرة، ومعاركَ متنوعة، وابتلاءات في الأموال والأنفس، وأذى من المشركين والمخالفين، وأعظم أسباب الانتصار على كل هذا العقيدة السليمة، والعمل الصالح، والصبر والاحتساب، قال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وإذا عظُمت المحنة كان الصبر للمؤمن الصالح سببًا لعلُوِّ الدرجة، وعظيم الأجر، كما سئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رِقَّة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**»(١)، وحينئذ يحتاج من الصبر إلى ما لا يحتاج إلى غيره، وذلك هو سبب الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور، وترك السيِّء المحظور، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى، وعلى ما يُقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر، ولا يمكن العبد أن يصبر إن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ح ٢٣٩٨، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجة، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ح ٣٢٤٩، وانظر صحيح سنن ابن ماجة ٢/ ٢٧١، ح ٤٠٢٣.

لم يكن له ما يطمئن له، ويتنعم به، وهو اليقين؛ فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بني آدم، لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياه إلا بهما»(١).

فالذي يستقيم على شرع الله ويحفظ حدوده، ويصبر على العبادة، وعلى ما يصيبه من الابتلاءات، ويرضى بقضاء الله وقدره، يتولاه الله، ويوصل إليه مصالحه، وييسر له منافعه الدينية والدنيوية، وينصره على عدوه، ويدفع عنه كيد الفجار وتكالب الأشرار، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]، ومن كان الله مولاه وناصرَه، فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه، فلا عزّ له، ولا قائمة تقوم له(٢).

فالصبر أمر واجب لا بد منه؛ فإن الله تعالى أمر بالصبر ووعد عليه الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤،٣٥]، وقال: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

ويقول الرسول ﷺ: **«من يتصبَّر يصبِّره الله، وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا ولا أوسعَ من الصبر»**(٣).

---

(١) انظر: الاستقامة ٢/ ٢٦٠-٢٦٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٢٨٢.

(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعطاف في المسألة، ح ١٤٦٩، وفي الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، ح ٦٤٧٠.

ولهذا قال عمر بن الخطاب: «وجدنا خيرَ عيشنا الصبر»[١].

كما يجب أن يكون الصبر عند الصدمة الأولى للمصيبة أو الحادثة، قال ﷺ: **«الصبر عند الصدمة الأولى»**[٢].

قال ابن حجر: «والمعنى: إذا وقع الثبات أول شيء يهجُم على القلب من مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل، الذي يترتَّب عليه الأجر»[٣]، ثم نقل قول الخطابي (ت ٣٨٨هـ): «المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو»[٤].

فالصبر واجب في كل الأحوال، فيجب الصبر على العبادة وإقامة شرع الله تعالى، ويجب الصبر وحبس النفس عن المحرمات والمنهيات، ويجب الصبر عند وقوع المصائب والابتلاءات، وفي ميادين القتال ومنازلة الكفار.

أما بالنسبة إلى الرضا بالقضاء، فيختلف حكمه باختلاف الأمور السابقة؛ فإن الرضا بالواجبات الشرعية واجب من حيث إنه قدَرُ الله وقضاؤه، ومن حيث المقضي؛ إذ الرضا بالواجبات الشرعية والعمل بهما واجب، أما بالنسبة

---

(١) رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، وقال ابن حجر: وقد وصله أحمد في كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد، قال: قال عمر، انظر: فتح الباري ١١/ ٣٠٣، وكتاب الزهد ص١١٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، ح ١٢٨٣.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ١٤٩،١٥٠.

(٤) انظر المصدر السابق، ص ١٥٠.

للمعاصي والمحرمات، فمن حيث القضاء الذي هو فعل الله، فيجب الرضا، وأن الله تعالى حكيم. ولولا حكمتُه اقتضت وجودها ما وقعت، وأما من حيث المقضيِّ -وهو معصية الله والوقع في المحرمات- فيجب عدم الرضا بها، والسعي لإزالتها، أما المصائب والابتلاءات فيجب الرضا بها من حيث إنها قضاء الله وفعله، أما الرضا من حيث وقوعها على العبد، فإنه مستحب عند جمهور أهل العلم[(١)].

وأما الفرق بين الصبر والرضا؛ فإن الصبر كف النفس وحبسها عن التسخُّط مع وجود الألم، والرضا يوجب انشراح الصدر وسَعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم ، لكن الرضا يخفف الإحساس بالألم[(٢)].

يقول ابن القيم: «وأما حديث (الرضا بالقضاء)، فيقال: أولاً: بأي كتاب، أم بأي سنة، أم بأي معقول علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره؟ بل بجواز ذلك، فضلاً عن وجوبه؟ هذا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأدلة العقول ليس في شيء منها الأمر بذلك، ولا إباحته، بل من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخطه ويمقته، فلا نرضى بكل قضاء، ويقال: ثانيًا: هاهنا أمران: (قضاء) وهو فعل بذات الرب تعالى؛ و(مقضي) وهو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء خير كله، وعدل وحكمة، فيرضى به كله، والمقضي قسمان: منه ما يرضي به، ومنه ما لا يرضي له، ويقال: ثالثًا: القضاء له وجهان: أحدهما: تعلُّقه بالرب تعالى، ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضى به كله، الوجه الثاني: تعلقه بالعبد،

---

(١) انظر: فتاوى الشيخ محمد الصالح العثيمين ١/ ٦١.

(٢) انظر: المصدر السابق، ونور الاقتباس ص٥٥.

ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به، وإلى ما لا يرضى به»[١].

وفي موضع آخر ذكر ابن القيم أن الناس تنازعوا في الرضا بالقضاء، هل هو واجب أو مستحبٌّ؟ على قولين، وهما وجهان لأصحاب أحمد، فمنهم من أوجبه واحتجَّ على وجوبه بأنه من لوازم الرضا بالله ربًا، وذلك واجب، ومنهم من قال: هو مستحب غير واجب؛ فإن الإيجاب يستلزم دليلاً شرعيًا، ولا دليل يدل على الوجوب، وهذا القول أرجح؛ فإن الرضا من مقامات الإحسان، التي هي من أعلى المندوبات»[٢]. ولعل مراده هنا الرضا بالمصائب من حيث وقوعُها على العبد؛ بدليل قوله بعد ذلك: «الحكم والقضاء نوعان: ديني وكوني، فالديني يجب الرضا به، وهو من لوازم الإسلام، والكوني منه ما يجب الرضا به كالنِّعَم، التي يجب شكرها، ومن تمام شكرها: الرضا بها، ومنه ما لا يستحب الرضا به كالمعايب والذنوب التي يسخطها الله، وإن كانت بقضائه وقدره، ومنه ما يُستحبُّ الرضا به كالمصائب، وفي وجوبه قولان، هذا كله في الرضا بالقضاء الذي هو المقضيُّ، وأما القضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله، كعلمه وكتابته وتقديره ومشيئته فالرضا به من تمام الرضا بالله ربًا وإلهًا ومالكًا ومدبرًا»[٣].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل (إياك نبعد وإياك نستعين) ١/ ٢٥٦.

(٢) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص ٢٧٨.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

المبحث الحادي عشر

في قوله ﷺ: « واعلم أن الفرج مع الكرب »

كلما اشتدت الأمور واكتربت وضاقت؛ فإن الفرج بإذن الله تعالى قريب؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]. «فكلما اشتدت الأمور، فانتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى»(١).

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: «أي: هل يجيب المضطرب، الذي أقلقته الكروب، وتعسَّر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء؛ أي: البلاء، والشر، والنقمة إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاءَ من قبلكم كما أنه سميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟

لا أحد يفعل مع الله شيئًا من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون؛ ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعَوُا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: قليلٌ تذكُّركم وتدبُّركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادَّكرتم، ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم»(٢).

والكرب إذا اشتد وأيِسَ العبد من جميع المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده،

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ٤٥٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٥٥٧.

فهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم ما تَطَلَبُ به الحوائج، ومن توكل على ربه كفاه[(١)]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

فالفرج يحصل سريعًا مع الكرب، فلا دوام للكرب. وحينئذ، فيحسن لمن نزل به كرب أن يكون صابرًا محتسبًا، راجيًا سرعة الفرج مما نزل به، حسن الظن بمولاه، في جميع أموره، فالله سبحانه وتعالى أرحم به من كل راحم، حتى أمه وأبيه؛ إذ هو سبحانه وتعالى أرحم الراحمين.

ويشهد لهذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٨،٤٩]، فهؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين من نزوله إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم جاءهم على كرب وشدة وفاقة، فوقع منهم موقعًا عظيمًا، فكان فرجًا وتيسيرًا.

وقد قصّ الله تعالى في كتابه قصصًا كثيرة تتضمن وقوع الفرج بعد الكرب والشدة؛ كقصة نجاة نوح عليه الصلاة والسلام، ومن معه، في الفلك من الكرب العظيم، مع إغراق سائر أهل الأرض، وقصة نجاة إبراهيم عليه

---

(١) انظر: فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٧٨، وبهجة الناظرين ص ١٣٦.

الصلاة والسلام مع ولده الذي أمر بذبحه، ثم فداه الله بِذِبْح عظيم، وقصة موسى عليه الصلاة والسلام مع أمه لما ألقته في اليم حتى التقطه آل فرعون، وقصته مع فرعون لما نجى الله موسى في البحر وأغرق عدوه، وقصص أيوب ويونس ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وقصص محمد ﷺ في نصره على أعدائه ونجاته منهم في عدة مواطن، مثل قصته في الغار، ويوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، وكذا قصة عائشة في حديث الإفك، والبراءة منه، وقصة الثلاثة الذين خلفوا، وغير ذلك من قصص القرآن الكريم وأخباره[١].

وفي السنّة أخبار كثيرة من تفريج الكرب عند اشتدادها؛ كقصة الثلاثة الذين دخلوا الغار، فانطبقت عليهم الصخرة، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة، ففرج عنهم[٢]، وقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وسارة مع الجبار الذي طلبها من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فرد الله كيد الظالم[٣]، وعندما اشتكى رجل إلى النبي ﷺ، وهو قائم يخطب يوم الجمعة، احتباسَ المطر وجهد الناس، فرفع رسول الله ﷺ يديه، فاستسقى لهم، فنشأ السحاب، ومُطروا إلى الجمعة الأخرى، حتى قاموا إليه ﷺ وطلبوا منه أن يستصحيَ لهم، ففعل، فأقلعت السماء[٤]. إلى غير ذلك من القصص والأخبار الثابتة.

---

(١) انظر: نور الاقتباس ص٦٥، وجامع العلوم والحكم ص ٤٩١.

(٢) سبق تخريج هذه القصة: ص ١١٠

(٣) انظر القصة بتمامها في صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، ح ٢٢١٧.

(٤) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب رفع اليدين في الخطبة، ح ٩٣٢.

والعبد معرَّض للمصائب والفتن، فقد تشتد عليه الأمور، وتضيق عليه الدنيا، ويتمكن منه الهم والحزن؛ فإذا صبر واحتسب، ولم ييأس من نصر الله وفرجه، والتجأ إلى مولاه بالدعاء والتضرع، في جميع أحواله، جاءه النصر والتأييد والفرج.

يُروى عن الشافعي (ت ٢٠٤هـ) قوله:

صبرًا جميلاً ما أقرب الفرجا ... من راقب الله في الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذى ... ومن رجاه يكون حيث رجا[١]

---

(١) انظر: مناقب الشافعي ٢/ ٣٦٢.

المبحث الثاني عشر

في قوله ﷺ: « وأن مع العسر يسراً »

أي: إن كل عسر بعده يُسرٌ، بل إن العسر محفوف بيُسْرين: يُسر سابق ويسر لاحِق؛ قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥،٦].

يقول السعدي: «وقوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : بشارة عظيمة: أنه كلَّما وجد عسر وصعوبة؛ فإن اليسر يقاربه ويصاحبه... وتعريف (العسر) في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلن يغلب عُسرٌ يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام، الدال على الاستغراق والعموم دلالة على أن كل عسر، وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ، فإنه في آخره اليسر ملازم له»[١].

ويدل على ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]، ففي هذه الآية بشارة للمعسرين بأن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة[٢].

والكرب والعسر والشدة أمور تصقل العبد وتُصَفِّيه من الشوائب؛ إذ تزيد من تعلُّقه بربه والالتجاء إليه بإخلاص، وحسن اتباع، فتطهِّره من ذنوبه إذا صبر واحتسب، وأخلص وتابع، والعسر لا يدوم بالعبد، بل معه اليسر والفرج.

وقد استدل ابن كثير[٣] على هذه المسألة، بحديث عن رسول الله ﷺ، جاء

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٨٥٩، وانظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٢٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٨٠٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٨٤.

في إحدى رواياته، عن أبي هريرة ﷺ قال: أصاب رجلاً حاجةٌ، فخرج إلى البرية، فقالت امرأته: اللهم ارزقنا ما نعتجن، وما نختبز، فجاء الرجل والجَفْنة ملأى عجينًا، وفي التنور حبوب الشواء، والرَّحى تطحن، فقال: من أين هذا؟ قالت: من رزق الله، فكنَس ما حول الرحى، فقال رسول الله ﷺ: **«لو تركها لدارت أو طحنت إلى يوم القيامة»**(١).

ويدل على أن العسر إذا اشتد بالعبد؛ فإن بعده اليسر بإذن الله تعالى، قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، وقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فهنا يذكر الله تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله، في أحرج الأوقاف، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها(٢).

يقول السعدي عند تفسير الآية السابقة من سورة البقرة: «يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة، كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية، التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٢/ ٤١، والبيهقي في الدلائل ٦/ ١٠٥، والبزار في مسنده ٤/ ٢٦٧، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٢١، ٥١٣ برواية أخرى، وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٧، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٦/ ١٠٥١، ١٠٥٢، ح ٢٩٣٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٣٩، ٢/ ٤٧٨، ودقائق التفسير ٣/ ٣٠٣، ٣٠١.

بد أن يبتليه؛ فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقعة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله؛ بأن صدَّته المكاره عما هو بصدده، وثَنَتْه المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان؛ فإنه ليس الإيمان بالتحلِّي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدِّقَه الأعمال أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ أي الفقر والأمراض في أبدانهم، ﴿ وَزُلۡزِلُواْ ﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار، حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطؤوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه ﴿ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ ، فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ فهكذا كل من قام بالحق، فإنه يُمتحن، فكلما اشتدت عليه وصعبت - إذا صابر وثابر على ما هو عليه- انقلبت المحنة في حقه منحةً، والمشاقُّ راحاتٍ، وأعقبه ذلك الانتصارَ على الأعداء، وشفاءَ ما في قلبه من الداء»(١).

وأخبر سبحانه وتعالى عن يعقوب عليه الصلاة والسلام أنه لم ييأس من لقاء يوسف عليه الصلاة والسلام وأخيه، وقال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا ﴾ [يوسف: ٨٣]، وقال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٧٩.

فمن فوائد هذه القصة: «أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب، واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب، ومسَّهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، وحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجةً واضطرارًا، فتم بذلك الأجر، وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء والعسر واليسر، ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم»[1].

وقد ذكر بعض أهل العلم أمورًا عدُّوها من حكم اقتران الفرج باشتداد الكرب، واقتران اليسر بالعسر؛ فمن ذلك:

١- أن الكرب إذا اشتد وعظُم وتناهى وجد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، ووقع التعلُّق بالله وحده عز وجل، فحينئذ يستجب الله له ويكشف عنه ما به، فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، والاعتماد على الله وحده لا شريك له، والتوكل على الله من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج؛ فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

٢-أن العبد إذا وقع في عسر، واشتد عليه الكرب؛ فإنه يحتاج إلى مجاهدة نفسه، والشيطان؛ لأن الشيطان قد يأتيه فيقنطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون ثواب ذلك دفع البلاء عنه، وتيسير أمره، وتفريج كربته، ولهذا جاء في الحديث: «يُستجاب لأحدكم ما لم يَعجَلْ، فيقول: قد دعوت، فلم

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٣٦٦.

يُستجب لي، فيدَعُ الدعاء»[١].

٣-أن العبد إذا استبطأ الفرج، ولا سيما بعد الدعاء والتضرع، رجع باللائمة إلى نفسه، وبحث عن تقصيره، فأصلح خطأه، وعالج نقصه[٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ح ٦٣٤٠، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، ح ٢٧٣٥.

(٢) انظر: نور الاقتباس ص٧٦،٧٧، وجامع العلوم والحكم ص ٤٩٤،٤٩٥.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وخاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد.

فإنه من خلال دراسة هذا الحديث العظيم، وهذه الوصية الكريمة من رسول الله ﷺ، يتبين ما يأتي:

١- ضرورة تربية الناس، وبخاصة النشء على التعلق بالله تعالى، وحفظ حقوقه.

٢- أن أعظم حقوق تعالى توحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والحرص على سلامة العقيدة مما قد يشُوبُها من الشرك والبدع والضلالات؛ إذ إن سلامة العقيدة وإخلاص العمل لله تعالى، مع حسن المتابعة لرسوله ﷺ، هي شروط قبول العبادة؛ التي إن تأخَّر أحدها حبط العمل.

٣- أن من حفظ حدود الله، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، فإن الله يحفظه في دينه ودنياه.

٤- أن تحقيق هذا الحديث والعمل به يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق وعن سؤالهم، واستعانتهم، ورجائهم بجلب نفع أو دفع ضر، وخوفهم من إيصال ضر، أو منع نفع، وذلك يستلزم إفرادَ الله عز وجل بالطاعة والعبادة، وتقديم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعًا، والحذر مما يسخطه، ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا.

٥- وجوب تربية الناس وتعليمهم الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ذلك لا يناقض

العمل والاجتهاد في العبادة، بل يوجبه ويدعو إليه.

٦- وجوب التعرف إلى الله والالتزام بشرعه في جميع الأوقات، وبخاصة في أوقات الرخاء، الذي هو مظنَّة الفتور والنسيان، وأن ذلك التعرف هو سببُ نصر الله وتأييده في الشدة وعند الكرب والعسر.

٧- فهم هذا الحديث والعمل به من أعظم أسباب الشجاعة والإقدام والجهاد في سبيل الله، وذلك أن المسلم يعلم أن الضر والنفع بيد الله، وأن العبد لا يصيبه ضر ولا نفع إلا ما قُدِّر عليه.

فهرس المصادر والمراجع

١- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ

٢- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، عالم الكتب، بيروت.

٣- الاستقامة، أبو العباس أحمد بن تيمية، أشرفت على طباعته جامعة الإمام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، المطابع الأهلية، الرياض، ١٤٠٣هـ.

٥- أعلام السنة المنشورة، حافظ بن أحمد الحكمي، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٧٦م.

٧- إيضاح المعاني الخفية في الأربعين النووية، محمد تاتاي، دار الوفاء المنصورة بمصر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٨- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مطبعة كروستان، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ

٩- بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، السعدي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

١٠- بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١١- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٢- التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثًا النووية، إسماعيل بن محمد الأنصاري، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٣- تفسير الفاتحة، محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

١٤- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ.

١٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.

١٦- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٧- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ.

١٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩- خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل البخاري، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

٢٠- دقائق التفسير، أبو العباس أحمد بن تيمية، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان، نشر وتوزيع إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٢٢- ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف، عبد الله الغفيلي، دار المسير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٣- الرسالة التدمرية، أبو العباس أحمد بن تيمية، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

٢٤- رياض الصالحين، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٥- الزهد، أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢٦- الزهد، عبد الله بن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٢٨- السنة، لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٢٩- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الدعوة، إستانبول ١٤٠١هـ.

٣٠- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٣١- سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة، دار الدعوة، إستانبول ١٤٠١هـ.

٣٢- السنن الكبرى، البيهقي، دار الفكر.

٣٣- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٣٤- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.

٣٥- شرح الأربعين حديثًا النووية، ابن دقيق العيد، مؤسسة الطباعة، جدة، ١٤٠٣هـ.

٣٦- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٧- شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ

٣٨- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.

٣٩- الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٤٠- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت.

٤١- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٤٢- صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٤٣- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

٤٤- صحيح ابن حبان، تحقيق محمد حمزة، دار الكتب العلمية.

٤٥- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٦- صحيح سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

٤٧- صحيح الكلم الطيب، لابن تيمية، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

٤٨- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعوة، إستانبول ١٤٠١هـ.

٤٩- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، نشر وتوزيع إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٥٠- عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين، صالح بن إبراهيم البليهي، المطابع الأهلية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٥١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

٥٢- فتح المبين لشرح الأربعين، أحمد بن حجر الهيتمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٥٣- الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثًا النووية، إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي، دار الفكر.

٥٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

٥٥- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، محمد الصالح العثيمين، مطابع السلمان، بريدة، ١٤١٥هـ.

٥٦- قواعد وفوائد من الأربعين النووية، ناظم محمد سلطان، دار الهجرة، المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ.

٥٧- القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد الصالح العثيمين، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٨- كتاب الصلاة وحكم تاركها، ابن قيم الجوزية، إدارة ترجمان السنة، باكستان.

٥٩- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٦٠- لسان العرب، ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت.

٦١- اللمعة في الأجوبة السبعة، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٦٢- متن الأربعين النووية، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، ضبط ألفاظها وشرح غريبها محيي الدين مستو، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.

٦٣- المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية، أحمد بن حجازي الفشني، [وهو بهامش شرح الشبرخيتي].

٦٤- مجمع الزوائد، الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.

٦٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب ابن قاسم، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٦٦- مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين)، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٦٧- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، مكتبة إمدادية، باكستان.

٦٨- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله النيسابوري الحاكم، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

٦٩- المسند، أحمد بن حنبل الشيباني، دار الدعوة، إستانبول ١٤٠١هـ.

٧٠- المسند، الحميدي، تحقيق الأعظمي، عالم الكتب، بيروت.

٧١- مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٧٢- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

٧٣- المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم الطبراني، مطبعة الوطن العربي في بغداد، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

٧٤- مناقب الشافعي، البيهقي، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٣٩١هـ.

٧٥- منهاج السنة النبوية، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، أشرف على طباعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٧٦- نور الاقتباس، ابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٧٧- الوافي في شرح الأربعين النووية، مصطفى البغا ومحيي الدين مستو، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة العاشرة، ١٤١٧هـ.

فهرس الموضوعات

مطبعة النرجس التجارية
NARJIS PRINTING PRESS
تلفون : ٢٣١٦٦٥٣/٢٣١٦٦٥٤
فاكس : ٢٣١٦٨٦٦ الرياض